هاني فحص

خطاب القلب



تقديم
د. ابراهيم بيضون

دار بلال

هاني فحص

خطاب القلب

عاصي

تقديم

د. ابراهيم بيضون

الغلاف : تصميم الفنان
الاستاذ محمد شمس الدين

دار بلال

سلاف التين

تحرّض عليّ قلمي ، كما حرّض الشيخ اطفالك ، فكانوا يكبرون سراً ويذهبون اليه . . ولكنهم لم يتمردوا ، فالشيخ فرع من دوحة كسوتَ عريها وقت الجفاف، ولجأت كثيراً الى فيئها المهجور ، ومازلت تنشر في ظلالها جسدك ، وترسل روحك على مساحب اجنحتيها الورقية الخضراء .

لعل قلمي يطوع لك ، فلا يتمرد عليّ ، وإن كنتْ اؤثر ان اظل وراء كلماتك ، حاصداً وليس زارعاً ، وأن ابقى القاريء الذي « يبتاع » ، لا الكاتب الذي « يبيع » . . فكيف بي معك ، وأنت الذي « جاور » الجنوب وحلّ فيه . . شجرةً . . زهرة . . سنبلة قمح . . . شتلة تبغ ، يستّل قلمه من الغصون ، يغمس بها في الاقاصي ، يكتب « بالدحنون العينين » . . فإذا « ما انعقد سلاف التين أصبح دماً شهياً وعذباً » . . آه التين . . السلاف . . الشهادة التي تصبح ضرباً من السكر . . رويدك فلو بايعتني قليلاً مما عرضت على غيري ، لما رضيت . . فالمقام صعب، وأكاد اجزم انه يرتّج عليّ ، وأنا أعد نفسي للرحيل معك . . وإذ بدوت غير ذلك ، ففي تهدّم القلم وعجفَ الحبر ما يفضح المقال . . وكيف لي ان اصل الى الذهب وأجوس الاحجار الكريمة ، وأنا المقيم على الضفاف ، ولا حظّ لي منها سوى النظر .

ولكنك ، بادلت غيري بالتراب ذهباً ، فلعلك بعد سخي في المبادلة . . ولولا ذلك لما تجرأت على الدخول الى

السوق، وإتخاذ مكاني في مقدمة هذا الكتاب ـ القصيدة . فلكم أغرتني النفس في الماضي بأن أُمهّد لك الكلام على المنبر، ولطالما احترفت هذه «الطريقة» على منبر[1] يحتضننا معاً ، وقد زرعت فيه سنوات من العمر جميلة ، حيث استمعت للمرة الاولى اليك ، قبل نحو عشرين من الاعوام . . كنتَ تحاضر في موضوع حسيني مثير ، أدهشني حينذاك أن يكون الكاتب في التاريخ مبدعاً أيضاً ، كما المحبّر في الادب والمبحر في الشعر ، ويكون الاديب المؤرخ ، او المؤرخ الاديب ، اكثر قدرة على حبك المسألة من المؤرخ المدمن على التفاصيل ، وينتهي بها الى أن تكون كما بيت القصيد عند الشاعر . . المهم إذن هو العمق، أو عشق العمق الذي يقود وحده إلى الابداع .

وإذا كان «البيروني» رأى قديماً « أن التاريخ يُدرس من خلال الرسوم والآثار الباقية ، ولا سبيل اليه من جهة الاستدلال بالمقولات » ، فإن المؤرخ ـ وموضوعيته خارج النقاش ـ بحاجة ايضاً ، ليس فقط الى اسلوب الأديب، بل الى خياله ، ليدرك هذا العمق، ويمسك بزمام النص ، ويحيط بما خفي منه وما أعاق صاحبه عن بلوغ ما كان يرمي اليه ، على نحوٍ تكون عدّة السفر كاملة ، لمن يريد الصعود الى المركب الخشن .

. . ولكن ما شأني بهذا الموضوع الآن ، فقد القيتُ معك سلاح المؤرخ عن طيب خاطر ، وفعل بي سلاف التين ما

(١) المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

فعل . . تغمرني النشوة ، واستفيق مذعوراً ، فترتّج العواطف على صدمة جميلة وحزن أخّاذ . . وإذ بي وجهاً لوجه أمام الشيخ راغب من جديد، وهو يعقد لبلال ورفاقه ، ولا يدعهم قبل ان يدفع لهم مهور الزواج . . يعتذر بلال ، فالوقت ضيق ، ويهمس في آذان الصحبة المتأهبين للخروج : « لا تصدقوا ، في الجنة لا توجد مهور .

لكزه الشيخ بعصاه وقال : اسكت يا بلال لماذا نكشف اسرارنا ؟

قبل ان تكتشفه جدته وتعاتبه على طول الغياب ، لوّح بعصاه جنوباًومضى .

اشار الى الشرق مرة . . وإلى الجنوب مرة .

ويتحدث الاطفال عن صوته في الريح

والخطباء عن كلامه في الصمت

والفلاحون عن لون عينيه في قوس قزح وبشائر الصحو والصحوة والفلاحة والبذار والفلاح .

والمقاتلون عن ريادته في الدروب الصعبة . . في الزمن الصعب ، والارض عن وقع اقدامه ، حيث تنبت شقائق النعمان وتزهر الهندباء . . والبلان » .

يبدو ان المغامرة طابت لي ، فنسيت تعثري وأخذت جرعة اخرى من سلاف التين . . لم اعد اخفي سروري وأنا اغرف من هذا الضوء ، وأملأ العينين من زهر اللوز وبحيرة الدحنون ، فينتشر اللبان الجنوبي على مساحة المكان .

ولكن ما بال السيد يقطع الحلم . . ففي المقامة «السفيرية»

(١) شيء من الوجع . . لا ادري إذا كان فعلها موقوتاً في حينه . . ربما كان ، يجب الانتظار الى موعد آخر في زمن «السفير» ، او التعقيب عليها في «عيدها» (٢) الذي يحضر الآن ، فيُزاد ما يجب ان يُزاد ، او يُختصر مما قيل ، لأن اهل «السفير» ، رحلوا ، او جلّهم ، ، إلاّ القليل المرابط على انقاض حلمه ، وقد اصبحت دائرية ليس لها حدود .

ما اتعس حظك يا « سيّاب » ، وزمنك الذي غار ، والزوايا كانت ما تزال لها حدود صارمة : « يسقط الجسر الخشبي على نهر بويب ، وعندما رآه السياب يسقط خاف ان يسقط النهر ، فعاد الى قبره في البصرة ، ومن هناك اتكأ على كبده » . . قال كلاماً غير مفهوم ، ولكن السيد ادرك معناه تماماً ، فخيوط عباءته القديمة من نسيج هذه المعاني التي نثرها السيّاب ، كما ينثر الانسان روحه ، ولم يقل الحقيقة عندما زعم انه اضاع ديوان الشاعر الذي اسعفه الحظ ، فقطع الرحلة قبل المغيب . . ربما سرقوه ، على انه ، اي السيد، ليس بحاجة الى ابتياع ديوان جديد .

يعود الى انسيابه ، ولكن كلامه مبهم احياناً . . نتمسك بأهداب العباءة العتيقة . . نغمض العينين والقلب على انفتاحه ، فإننا لمرتحلون بالفضول الى البحث عن شاعر آخر محظوظ ، هو « صلاح عبد الصبور »، وقد شوهد هائماً في

(١) اشارة الى مقالة له عن جريدة السفير

(٢) الثامن عشر لصدور السفير

شارع ابي النواس، مصطحباً جول جمال وسليمان الحلبي وزهران . . ثم منكفئاً « الى سمكة بنية تحاول ان تنقذ نفسها من حفرة موحلة من قاع الفرات تحت جسر الشهداء ولم تفلح » . . ومن قبله كان «الجواهري» ، «يسعى ليل نهار باحثاً عن حتفه وقبره ، ولم يصل » . . والآخرون شوهدوا للمرة الاخيرة ، وإن كانوا بعد احياء يُرزقون . . فقد غابوا في الدخان ، وقصائدهم تسممت بالبخور النجدي . . وعاصفة الصحراء لم ينته زحفها بعد .

الى اين تسير بنا يا سيدي ، فقد ماتت العواطف ، ورست الافئدة ، وانطفأت النار في القلوب . . وها انت تعيدنا الى جوف التنور فيشتعل فينا من جديد . لعلك تعقل، تمارس هدوءك قليلاً ، وتعيد قليمك المشبوب الى غمده . يخيّل اليّ انك فعلت في بدء الكلام عن « نبع ونهر وفارس » [1] ، ومستهلّه قول لـ «غارودي»يعرقل السياق الحنيني الدافيء . . ولكنني اخطأت الظن ، فسرعان ما تحلّق بنا في الاتجاه نفسه ، وتمخر العباب جنوباً ، ولماتزل رائحة التبغ في ثيابك . . والمعادلة الجديدة تقلب مفهوم البشر ـ الحجارة ، الى مفهوم الحجارة ـ البشر، وأكاد اخرج معك الى معادلة ثانية ، تأخذني من حالة الشاعر ـ المقاوم ، الى حالة المقاوم ـ الشاعر . . فهي ليست غيمة ، ولو كانت كغيمة الصحراء الكثيفة . . « إنها نهر حان انبثاقه ، نهر يشاكل ارض الجنوب لوناً وطعماً ، ويضارعها وعداً وحلماً ، عنوانها بلال . . بلال

(١) من عناوين الكتاب

حارس النهر « . . يلتبس عليّ الفهم . . ناظم هذا الكلام انت ام بلال ؟ على الرغم من التحذير الصادر عنك : « ايها الحارس يا بلال ، كن يقظاً . . وإلّا غضب النبع » .

ولكن ما بالك تعود الى قراءة الذاكرة العتيقة ، وإني لأراها بعد نضرة لديك ، تعّج بالتفاصيل . . فليكن ، وقد غامرت بالرحيل معكَ، وراق لي الابحار نحو الجذور . . فمن قال ان الجبل العاملي يُقرأ في العيون فقط ؟ فهو مقروء منذ القديم بقلم وسيف . . ولو أزحت عباءتك قليلاً ،لأنهالت صحائف التاريخ . فالتشيع خط اسلامي ونفس عروبي . . من قال غير ذلك ؟ و «عاملة» في هذا المكان عربية إسلامية في الصميم . . ولكن التشيع ملتبس إن لم يدرك المؤرخ إنه قضية هي الاسلام ، وقضية هي العروبة ، وقضية هي المقاومة ، سواء كانت مساحة القضية ، جنوبية او فلسطينية او عربية . . فمساحة الحلال والحرام لا تقتصر في التشيع على الواجبات والممنوعات في الدين ، ولكنها تشمل ايضاً في تفاصيلها السياسة . . والقلم والسيف يُمتشقان من نفس الغمد ، والقصيدة مولودة في محراب الله ، والشيوخ الذين افاحوا في الدّوي وحفروا بأقدامهم في الريح ، وشموا فضاء الجنوب وأرضه بكلام رسولي بليغ : « فهي هجرة بعد هجرة ، ما قوتل الكفار » .

لا اظنك بَعُدتَ مطلقاً عن الجنوب ، فقد حملته في القلب . . وكلما اوغلت في السفر دنا اليك . . اخذك الشوق الى النجف ، وشربت الشاي معتقاً في الديوان العاملي ،

وعرجت الى الكوفة ، واتكأت على جذع نخلة ، فتلوت فصلاً من التاريخ . . وبكيت .

تتوغل في التاريخ اكثر ، ولكنك تعبر اليه على جناح فراشة ، انهكها الارتطام بالضوء . . وأنت ما تنفك تقرأ سطوره بنبض القلب، وترّصع النصوص بالقوافي ، مشحونة بكل المشاعر . . فلنعترف بأنه افق جديد في كتابة التاريخ ، وأنت امهر غامسي الاقلام اليه ايها الملاح . انت متعب حقاً ، مقيم في الحزن ، مثقل بالوجع . . والقلق ساكن منك في الجوارح . . فما يغريك على التواء في الجراح ؟ لعل بقيةمن حلم ما تزال لديك . . « تسافر لترويه كلما فاجأه نهر الدم المجاني وقتله عطشاً». فأنت في النهاية حسيني . . في تشيعك ، سواء « قام الحسين او قعد » ، وفي عروبتك وأنت تبحث عن سليمان (الحلبي وخاطر) وأدهم الشرقاوي . . وعن زهران وبهية في احياء القاهرة ، وفي اسلاميتك ، وأنت تخوض في دروب طهران « بائحاً بالحب والوجد ، شاهراً دمك » ، وفي صمتك المكسور، وقد اوحشك فراق الاحبة ، من الشيخ راغب وبلال، إلى بقية الأحبة ، ووداع « نمط في الرجال في طريقه الى الانقراض » [١] .

يبدو لي انك زهدت بالكلام حيناً ، ولكن «صرخة» [٢] تطلقها من جديد ، فأدرك ان مثلك لا يحسن الصمت . . تابع حديثك يا سيدي ، وأضف الى كؤوسنا من شرابك ، ما نروي

(١) اشارة الى عنوان في الكتاب «نمط ينقرض»

(٢) عنوان آخر

به الظمأ . . فأين لنا مثل لون حبرك ، وذوب قلمك ، وسحر بيانك ، سواء كتبت في الادب او في السياسة . . اما التاريخ فدعني اعترف بأنك صاحب طريقة فيه ، وإني لمن المهتدين بهذا النهج ، حيث تجللّت الضفاف بالورود ، و «مال الزنبق على النرجس» ، كما تقول . . تقترب من الحقيقة . . تبتعد عنها ، لا يهم . . من يصل إليها في النهاية ؟ على إنك تراودها فوق بساط الطبيعة ، وأنت ـ والحق ـ ممسك بلغتها ، وقاموسها حاضر بين يديك .

في انسيابك الدائم ، ومساحتك لا تعدو الجنوب . . تعترف ، تصرخ ، تحاول الصمت ، والجنوب وأنت في قلبه ، او هو في قلبك ، على مدار هذه «القصيدة» الجنوبية الحميمة . . قصيدة واحدة برغم تعدد العناوين . . نهر من الحنين فيها دائم التدفق ، وخطاب وحدوي دافيء ، وغابة لوز في أتم بهائها الربيعي ، وكل زهراتها ، كما كلماتك ، في مكانها الأصيل . . وددتُ لو طال بي تحت ظلالها المقام . .

ولكنني عدتُ ، وقد التبس عليّ الامر، وسؤال في البال يلحّ : من قدّم منا الآخر ؟ لعلك قمت بالمهمة من غير ان تدري . . فقد كتبتُ بقلمك ، واستخدمتُ ريشتك ، وامتشقت خيالك . . وأبحرت على متن قصيدتك الجميلة . . ومازلت .

ابراهيم بيضون
بيروت في ١٩٩٢/٤/٢٤


خطابات

صرخة

على زهد مني في الكلام ، نظراً لكثرته وقلة جدواه في هذه الأيام ، الزمتني به وشيجة خفيفة لطيفة من رحم بعيد نسبياً ولكنه قريب لأنه رحم من الرحمة ، والرحمة توثق القربي القريبة وتدني البعيدة .

هذه الوشيجة ما كنت اتعهدها إلا لماماً .

كانت ثوريتي بما تعني من التزام بتحرير الأرض المغتصبة والوحدة والعدالة تقتضيني قطع ما يجب أن يوصل .

إلى أن تناهى إلى علمي وعلمكم أن بريجنيف ومن قبله ستالين ومن قبله لينين كان يؤثر ارحامه ، وان تشاوشيسكو سلط ارحامه على رقاب الناس وارزاقهم وأن كاسترو معروف بمحاباة رحمه وأن آخر الثوريين المعاصرين أورتيغا في نيكاراغوا يقاسمه ارحامه الهموم والمناصب وأن وأن .

وأن الإمام الصادق (عليه السلام) سأله مرة صاحبه ابان بن تغلب قال : يا ابن رسول الله تكون لي العشيرة ويكونون على غير أمري الهم علي حق فقال : صلة الرحم لا يقطعها شيء فان كانوا على امرك كان لهم حقان ، حق الرحم وحق الاسلام .

قرأت هذا وقلت في نفسي آن الآوان لأعادة بناء الأرحام طبقاً للشرع وقواعد المروءة .

ولعل هذا ما يلزمنا جميعاً الآن ، خاصة وان ثوريتنا قد بلغت ذروتها ، فتقطعت أرحامنا تحت تأثير تديننا الثوري ، الذي يكاد يأتي على البدِيهيات من معارفنا والضروريات من قيمنا واخلاقنا يقول رسول الله (ص) .

«الصلاة وصلة الرحم حافتا الصراط» فمن كان منكم على يقين بان الجنة والنار حق واراد ان يجوز على الصراط بأمان واطمئنان فليصل رحمه وليستمسك به .

ان الرحم لأكثر دفئاً واكرم من كل العصبيات السياسية الحديثة والقديمة ، الرجعية والتقدمية ، الأسلامية والعلمانية .

رأيت الفقيد مرة ، لا اذكر ما اذا كنت قد رأيته قبلها أو بعدها كان يعتمر قبعة من قش ، ويرتدي الكاكي قميصاً وبنطالاً ، على جزمة من المطاط الأسود عليها بقايا من وحل تراب احمر .

كان على قدر من الفوضى الأنيقة . دخل الحسينية مع نفر قليل من وجوه لا أعرفها ، وكنا على مقربة من انتخابات فرعية لمقعد شغر بوفاة المرحوم والده .

قدم نفسه نصيراً للعمال والفلاحين ، بلغة ومفردات ، يتعلمها رب العمل عادة لكثرة ما يرددها على سمعه عماله عندما يطالبونه بزيادة اجورهم أو شيء من ضمانات العمل . . . والتقدميون يتعلمونها من كتب مترجمة .

مازحه بعض الحضور ممتدحاً طيبته وعفويته مشككاً في استمراره في الترشيح حتى نهاية المعركة . . . ولم يستمر .

لو افترضنا الآن جدلاً أن لبنان عاودته حالة من العافية النسبية التي كان ينعم بها قبل أن يولد جيل كامل من الناخبين الذين لا يذكرونها فيظنون ان مثالهم أمامهم. بينما نحن على

يقين بان مثالنـا وارءنا . . . لـو افترضنـا ذلك واصبـح للبنان رئيس يحسن أن يتخـذ قراراً عـادلاً أو جائـراً ، ولكنه قـرار ، ويتجرأ على تنفيذه بالقوة أو بالحسنى ، ولكنه ينفـذه ، ويقدر على حمـايته ، ونـظمت الأنتخابـات العـامـة لأختيـار ممثلي الشعب إلى مجلس تشـريعي بنزاهـة كـاملة أو بشيء قليـل أو كثير من التزويـر . . . وكان الفقيـد حاضـراً وقرر أن يجـرب حظه فماذا كان عليه أن يفعل ليقدم نفسه للناس ؟

عليـه أن يخلع الكاكي والجـزمة وينسى أو يتنـاسى لغة العمـال والفـلاحين وعليـه أن يعلم ويـأخـذ في اعتبـاره وفي بـرنامجـه الأنتخابي إن الخيط الفـاصل بين الليـل والنهار قـد انـزاح وان ليلنـا ونهـارنـا همـا ليـل فـلا حـاجـة لأن يعـدنـا بالشمس . . . فلن تطلع الشمس ثانية على وجـوهنا ، كمـا انزاح الخط الفاصل بين الطبقـة العاملة واربـاب العمل. بين الوطنية والأنعزالية ، بين ائمة المساجد وتاركي الصلاة ، بين فلسـطين «واسرئيـل» بين السعوديـة ومـوسكـو ، بين الأمميـة والامبريالية ، بين القوسية والقطرية ، بين التقوى والفسـوق ، بين الوطن والدكـان ، وجماهيـر الناخبين من عمـال وفلاحين وصغار والتجار والمـلاكين ، والطلاب والمثقفين اصبحـوا لا يحبـون إلا من لا يحبهم ولا يحترمـون إلا من يكـرههم ولا يصلون إلا خلف من لا يثقون به ولا يثق بهم ولا يخـافون إلا ممن لا يقتلهم .

وأن العلماء لم يعودوا يقفون على ابواب الزعماء لأنهم اصبحوا زعماء . . . ولكنهم حتى الآن لم يتخلصوا من عقدة الأغنياء ، وأن كانوا يحبون الفقراء ويحبهم الفقراء ، وقد يأتي يوم ، ولعله قد اتى ، فيقلع الفقراء عن حبهم ولسان حالهم لسان حال الشاعر العاشق :

علقتها عرضاً وعلقت غيري
وعلق اخرى غيرها الرجل

أو لسان حال : قيس مجنون ليلى .

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا
ومجنونة اخرى بنا لا نريدها

أو كحال عبد الله بن الزبير : احبه أهل العراق وأحب هو أهل الشام واحب أهل الشام عبد الملك بن مروان .

لقد كان بودي أن اكون أكثر انسجاماً مع موقفي ووظيفتي فاقف أمامكم واعظاً لكم متعظاً معكم بالموت ، ولكني آثرت أن لا اختبىء في ظل اصبعي ، فانا اعرف أنكم لم تعودوا تتوقعون من أمثالي موعظة، ونحن بناء لرغبتكم قد أقلعنا عن هذه العادة ، الم تكونوا إلى سنوات خلت تحثوننا على ان نكون حضاريين ونكف عن الكلام الديني المحض ، عن أحكام الطهارة والنجاسة والغسل والوضوء . وان نهتم بالشأن السياسي وها نحن قد امتثلنا لرغبتكم

فانظروا أين أصبحنا وأصبحتم ، دلونا الآن كيف نرجع وترجعون إلى كلامنا وخطابنا واخلاقنا وعلاقاتنا ووعينا ؟

إني أستميحكم عذراً فلن أعظكم لأني غير مستعد وأنتم غير مستعدين ، ولن أخوض معكم في حديث سياسي .

لأن هذا يستدعي أن أكون منتمياً إلى طرف سياسي حتى أملك الحقيقة . وأعدكم أو أتوعدكم وأن أكون حاملاً لبرنامج سياسي كتحرير فلسطين مثلاً صدقاً أو كذباً ، بالطول أو بالعرض ، بالوكالة أو بالاصالة . نيابة عن أهلها أو نكايةً بهم أو تحرير الطبقة العاملة من عملها ودمها وعرقها ومستقبلها ولكني والله يشهد ، لم تعد ذمتي تتسع للأكاذيب ، لا أصدقها ولا افعلها ، والمؤمن لا يلدغ من حجر واحد الف مرة .

ولا أنصحكم ولا أسمح لاولادي ولن أسمح لأحفادي ولا لأحد ممن احب له أن يعيش دنياه بكرامة وانسجام وأن يصل إلى آخرته بخير وعافية بالأنتماء إلى أي فصيل سياسي .

أيها الأخوة : أنه لغبي ومغبون من يستعيض عن البحر أو عن النهر بمستنقع مهما يكن نظيفاً وطاهراً فإن الأيام سوف تعرضه للقذارات والنجاسات .

اعتصموا بالبحر ، فالبحر لا يتسخ ولا يتنجس حتى لـو سبحت فيه خنازير الدنيـا كلها . ربمـا تقولـون : أنك تـدعي هذا المستوى من الصدق والصراحـة والغيرة فهـات يدك إلى أيدينا نقم بثورة ونقلب المائدة على رؤوس الجميع ! ! !

ولكني أذكـركم بـان كـل الـذين خـاطبـوكم بـالأمس وحرضوكم على التحرير وتغييـر الأوضاع الفـاسدة ، لم يكن خطابهم أقل صدقاً وصراحة وغيرة وحرارة من خـطابي ، فمن يضمن لي أن لا أنقلب عليكم . . . من يضمن لكم هنا في بلاد الشقيف أو في أقليم الشومـر اسوة بغيـركم في الأقاليم ، أن لا أطردكم من بيوتكم وارزاقكم لتهيموا على وجوهكم هنا أو هناك ، تتقاذفكم الخطب يميناً وشمـالاً وتختزل أحـلامكم بكيس عدس وعلبة فاصوليا ؟

وتتـوزعـون كـرامـاً على مـوائـد اللئـام ، يشتـرى مـاء وجـوهكم بأبخس الأثمـان ، وتتعرض اعـراضكم ونواميسكم لرغبات الذئاب ، ينبت العشب على سطوح بيوتكم ، وتنبت الأمجاد والثروات على دمكم . . .

وأنا اتوضأ ماء قراحاً واصلي صـلاة الليل واعظ النـاس الفقراء الضعفاء بالصبر ، وأن لا يدخلوا البيوت إلا من ابوابها بعد أن يستأذنـوا ويؤذن لهم ، فاذا قـويت شوكتهم فليـدخلوا البيوت من سطوحها أو من حماماتها أو من مخادع حرائرها .

وأعلمهم أن الغضب يبطل العبادة ، يبطل الوضوء والصلاة والدعاء وأنه لا يحل مال امرىء لأمرىء إلا عن طيب نفس .

وأن الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وأن رسول الله (ص) قال : العالم اذا أصاب كان شفاء واذا اخطأ كان داء .

وان علياً بن أبي طالب (ع) قال : والله لو اعطيت الأقاليم السبعة على أن اعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت .

وأن الحسين (ع) قال : الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم حتى اذا مُحّصوا بالبلاء قل الديانون .

أيها الأخوة . . . أنا ليس عندي بديل أنني أبحث عن عقلاء أو متدينين لعل عندهم بديلاً . . لا أعرف الأن ما هو الحق ، أعرف اننا نعيش عصراً باطلاً ، عصر باطل ، عصر اباطيل ، بعضها يشبه الحق .

وارى تناقضات مدمرة . . . ارى قياداتنا الروحية والزمنية ، تزداد مجداً كلما ازداد الناس ذلاً ، وتزداد استقراراً كلما ازداد الناس قلقاً ، وتزداد غنى كلما ازداد الناس فقراً ، واعترف لكم باني إلى سنوات مضت كنت اقيس نفسي دنيوياً

بمن هم دوني ، أمـا الآن فقـد دخلت فـي حسـد مـن هم فوقي .

إلى ذلك فاننا جميعاً نـزدادا غروراً بـوعينا كلمـا ازددنا جهلاً .

ان النفاق يكاد يصبح طابعاً عامـاً لحياتنـا ، والمحسن والمسيء عنـد الجميـع بمنـزلـة سـواء ، وأننـا نقيس الحق بالرجال ولا نقيس الرجال بالحق .

لقد انهار نظام قيمنا وتقطعت أرحامنا وابتدأت رذائل لا عهد لنا بها تقتحم حياتنا وتهددنا بعار لا يمحى .

أيهـا الأخـوة إني لا أملك إلا الصـراخ فلتقف هـذه المهزلة ليقف هذا الدمار البذيء□□

(*) صيف ١٩٩٠ـ الـوحدة الإسـلامية في تـأبين محمد الـزين نجل يوسف الزين نائب النبطية الراحل إبان الفتنة في جنوب لبنان .

اليكم وصيتي : أستقيل من كل شيء

مـا بين الكتابـة والأرتجال مسـافـة مـا بين العقـل وبين القلب . . . والعقل عقال .

ما نشاهده ليس عقلا . . **لأنه لا يعقُل ولا يعقِل .**

وإلا فمن أين يـأتي هـذا الـدم الكثيـر الـرخيص . أن أحداً من الروحـانين أو العلمانين لم يقـل لنا أن غيـاب العقل

(*) القيت في ذكرى بعض أهلنا الطيبين في الجنوب أثناء الفتنة العمياء ، وأسماء الأماكن الورادة : سجد جـرجوع هي : أرض الفتنـة وقتها .

يسمى دينا . . . فلماذا يسمون غياب العقل ، أي غياب الدين ، دينا ؟

قد يقال : للدميم قمر ، وقد يقال للجبان اسد ، وقد يقال للمجنون عاقل ، وقد يقال للخائن بطل ، وقد يقال للضحية شهيد ، وقد يقال للجائع شبعان ، وقد يقال للفاسق مؤمن . . . ولكن لا يقال لقلة العقل دين .

ومع غياب العقل من يضمن لنا بقاء القلب ؟ هذه ليست قلوبا . . . هذه حجارة . . وهذا الذي نسمعه ليس نبضا ، أنه احتكاك حجر بحجر .

غير أن أطفال الحجارة قد صنعوا للحجارة مجدا ، أو أن الحجارة صنعت لهم مجدا . . . تشارك الأطفال والحجارة في المجد . . . أين من مجد تلك الحجارة قساوة هذه القلوب ؟ وما يسمى مجازا قلوبا للشبه الشكلي وحسب!

في الكتابة . . . حيث الغلبة للعقل ، تصبح الكلمة مركبا تمتطيه ولا يمتطيك ، تحكمه ولا يحكمك ، وتصبح الحيطة أمرا ميسورا .

وفي شريعتنا موارد الأحتياط ثلاثة هي ، المال والعرض والدم .

أو لعل هذا الذي يسيل أمام أعيننا ليس دما . . !أو

ليس دمنا . . بل دم مستعار!

أو لعل هذا الذي يباع سرا وعلانية وباسعار مخفضة ليس عرضا ؟ وللوطن عرض ، وللأمة عرض ، وللتاريخ عرض ، وللدين عرض ، وللجغرافيا عرض ، وللعلم عرض ، وللأدب عرض ، وللأعلام عرض . .

أو لعل هذا الذي يحترق ليس مالا! . . أو أنه مجموع من حرام! . . أو ثمن نفط! . . أنا أقسم أن المال القليل الذي جمع في جرجوع وبنيت به تلك الدور المتواضعة المحترقة ، قد جمع من شح على النفس والولد . . وأن الدم الشيعي ليس مصلا ، وأن العامليات حرائر ولسن اماء . . . فويل للنخاسين ، الأتقياء منهم والفسقة . . . أو من هو متهم بالتقوى ومن هو متهم بالفسق . .

وجبل عامل ليس الكويت . كان قبل النفط وسيبقى بعد النفط ولم يقدم مساعدة للعراق في حربه . . . لم يكن قبل النبوات والايمان والعلم والشعر والاخلاق ولن يكون بعدها ، وليس له بديل .

استراح السيد المسيح في قانا الجليل . . نام ليلته وأكمل مشواره إلى صيد مرورا بصور ، وقابلته الكنعانية في حي الأربعين وشكت له همها . وعندما مر به أبو ذر منفيا من الجغرافيا إلى التاريخ ، موحدا متوحدا منحازا للعدل ،

مستعـدا للزهد جلبـابـا ، مخيـطا بـالأسـلام ، مـوشى بحب علي . . .

إنمـا سار على طـرق معبـدة . . . وعبـد مـا تبقى من طرق . . وضع على المفارق والمنعطفات أشارات وعلامات وصـوى أستهدت بهـا اجيال وأجيـال لم تستوحش في طـريق الحق وأن قل سالكوه .

ويوم دبت على أرضه الحشرات الكريهة منظرا ورائحة من يـوم الصليبيين إلى يوم اليهـود . سقاهـا علقمـا من رحيق التبغ والدفلى وعصارة القمح وسيف علي (ع) .

أن الصمصـامة ، سيف عمـرو بن معد يكـرب لم تكن هي التي تجنـدل الأبطال ، كـان سـاعـد عمـرو هـو الأصـل والصمصامة هي الفرع .

فلا يمنن علينا أحد أن سقا لنا سيفا ، أو أعطانا سيفا أو أعارنا سيفا . . أنه لم يعرنا زندا ولا أعطانا قلبا وعقلا ودينا ، أن كان له بعض السيف أو كثيـر سيف فمن عندنـا كل الـزنود وكل القلوب .

الا لا يصادرن أحد زنـودنا وقلوبنـا وعقولنـا ودماءنـا أو يستعـرهـا ، عنـدئـذ لا يقـطع السيف إلا لحمنـا ويقـطع يـد حامله ، وتبوء الشركة بخسران .

وتعود الحشرات الكريهة الضارة السامة تقتات من لحمنا المهترىء تحت حر الشمس في قرى كنا نستظلها من الشمس ونبترد بعذب مائها .

قف إلى الشرق من جرجوع . . أعط وجهك للشرق . . . دائما أعطينا للشرق ، حتى قبلتنا فيها بعض تشريق . . . ثبت وجهك على الشرق ماذا ترى ؟ ترى الحشرات أياها على تلة سجد تنتظر رائحة دمك ، ثم استدر نحو الغرب فماذا تجد ؟ لا تجد ضلا ، لا تجد ماء لا تجد سقفا ، لا تجد بابا تجد رائحة هي رائحتك . . هذا اللحم لحمك ، وهذا الدم دمك . . . وهذا الآنف أنفك ، فلماذا تزكمه رائحتك ؟

تجد كربلاء مقلوبة على رأسها .

تجد التاريخ يهرب منك إلى البحر . . يفلت من عينيك ، يتسلل من بين أصابعك كدبيب الحمى تجد المستقبل مستديرا مستدبرا . . وراء ظهرك وظهرك مكسور . . لا تجد مناصا من أن تمشي على رأسك فترى السماء أرضا والأرض سماء ، والجنون عقلا والعقل جنونا ، والجنة نارا والنار جنة ، والدم خمرا والخمر حلالا . . .

إنما حرمت الخمرة لأسكارها .

وأنت سكــران . . . نحن سكــارى ، فمتى نفيق من سكرتنا ؟

يقول أحد الشعراء :

أنــا ســكــران وأنــت مــجــنــون
فــمــن يــدلــنــا عــلى الــبــيــت اذن ؟

وأنـا اخشى أني إذا ما أفقت من سكـري وعـوفي أخي من جنونه أن نعود إلى البيت فلا نجد لنا بيتا .

والرائد لا يكذب أهله .

أننا نطلب من رائدنا أن يدلنا على البيت ، أن لا يهـدم البيت .

هـل يكذب رائـدنـا . أم أنـه يُكـذب عليـه . . لمـاذا يصدق ؟

أو أن المعـايير بين الصـدق والكذب قـد اختلت! اذن نصبح جميعا ملزمين بـالنفاق ومن لا يـريد أن ينـافق فليكتب وصيته ، اليكم وصيتي :

أني أستقيـل من كـل شيء ، من جبتي ولــون عيني ، ومن اذني واولادي واحفـادي وحـاضـري ومستقبلي ولسـاني وقلمي وكتـابي واحـلامي وآمـالي وحبي وارحـامي واخـواني ورفـاق طفـولتي واصـــدقـائي اللدودين واعــدائي الحميمين

والـرعـاة الـذئـاب والـذئـاب الــرعـاة وكــل القيم المقلوبـة والمستقيمة .

واحتفظ بالأسباب لنفسي .

أرجوا أن تكتب هذه الوصية في الصحف اليومية ، في الصفحة التي ينشر فيها الخطاب السياسي المباشـر والمكرور والمطمئن أحيانا ، المتوتر احيانا ، بلا داع ولا مبرر ، لرجال الدين ورجال السياسة الذين اختلط حابلهم بنـابلهم واصبحوا لا يتمــايـزون في شيء . . . فــان أبى أهــل الصحف أن ينشروها خوفا من أنتشار العدوى وحتى لا يستقيل الكتاب من أقلامهم واوطانهم ، فيرجى أن ترسل هذه الـوصية بـاليد مـع الصليب الأحمـر اللبناني أو الـدولي أو الأسلامي لتعلق على باب دكان أم جريس المنثورة حجارتها في الزقاق الممتـد بين حسينية جرجـوع وكنيستها إلى الجهـة الشماليـة الجنوبيـة من القرية على بعد امتار من تلة سجد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

لا تصدقوا

فـامثـالي ومن هم أعلى مني درجـة أو درجـات يهتــدون إلى طريق السلامة كما يهتـدي الرضيـع إلى ثدي أمـه . «والعترة عليكم» .

حاولت أن أكتب لأغلب العقل .

ولكن الواحد منا يحتاج إلى جليد الدنيا كلها ، كي يحكم عقله ويكتب بهدوء ، هذا أن كان في العقل بقية من قابلية على التحكم والتحكيم .

وكيف يحكم عقله من يرى صورة مشوهة ولئيمة للحسين (عليه السلام) وهو يقف على جسد العباس المقطع ضاحكا مستبشرا ويقول : الآن استقام ظهري وشفي صدري ؟ أو يرى العباس يستحم في ماء الفرات ويسقي بمائه وردة ظل في غرفة نومه وعبد الله الرضيع يتلوى عطشا ؟

اهكذا يستعاد التاريخ ويستحضر ؟
أباليد الشلاء يقرع باب الغد ؟
في الأرتجال تكون الغلبة للقلب .

وقد يغلب اللسان . أن كان على القلب أقفال أو كان المرتجل قد نسي قلبه في مخدع الدنيا وعلى وسادتها .

وفي أحسن الحالات قد يغالب لسان المرتجل قلبه ، وفي لحظة حماس أو غفلة قد يكشف اللسان ما لا يكشف ويقول مالا يقال .

قد يقول الحق تقليدا لعلي (ع) . فيخسر من اصدقائه بقدر ما يقول حقا . واذا ما أكثر من قول الحق ، لا يبقي عليه إلا أن يحزم حقائبه ويبحث عن وطن آخر وأهل آخرين ومسجد آخر وقبر آخر .

أيها الأخوة الذين لا يحسنون الكتابة لا تقولوا شيئا ، حذار أن تحدثوا زوجاتكم أو أخواتكم أو أولادكم أو أمام مسجدكم بشيء . لئلا تخسروهم .

حدثوهم أن شئتم بعد أختبار مزاجهم ، كلموهم بما يريدون ويحبون ، وأن تغير المزاج بين ليلة وضحاها ، بين ساعة وساعة ، بدلوا الكلام . . نافقوا لتعيشوا ، نافقوا ليتوحد البلد ، نافقوا لتحرير فلسطين ، نافقوا لتتقوا النار . . . نافقوا لكي لا تنفقوا . . . وقولوا سلاما . سلاما يا حاج محمد . . .

أيها الأصل النحيف الممشوق الممتشق دينه وفطرته سلاحا يذود به جور الزمان ومتاعب الأيام .

تعرفت إليه في مقتبل عمري . . عندما كنت أجوب قرى عاملة أبحث عن دم أحمله إلى فلسطين أو يحمل دمي إلى فلسطين .

عندما كنت أصل مبكرا إلى الصرفند ، قبل السيارة الخاصة والسائق والمرافق ، كان يحاصرني والمرحوم الشيخ عبد المنعم خليفة في الحاكورة التي تتوسط ما بين منزليهما يسلطان علي ذكرياتهما وأسلط عليهما احلامي وارى ايغالهما في البساطة والوضوح عائقا دون الثورة وتحرير القدس . . . حدثاني عن الموز وأن فسيلة الموز تلغي أمها . . .

فـاعتبرتهمـا شجرتي مـوز وجيلنا الفسيل. . . إلى أن جايلتني سنوات الكهولة وانبلج الشيب في فودي . . كان الشيخ عبـد المنعم قـد ذهب إلى بارئـه ولم أعد اقـوى على لقـاء الحـاج محمد عادل وجها لوجه . . . اذ كيف اعتذر له ؟ كيف أعود لأقـول لـه : لست شجـرة مـوز ولست أنـا فسيلة ؟ إنمـا أنت شجرة زيتون عمرها مئـات وباق لهـا من العمر مئـات والزبـد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض .

***

حـاولت أن ابـدأ من الكـويت ومـا حـولهـا ، مـرورا بالانزالات الأمريكية والمتعددة الجنسية في الجـزيرة العـربية انتهاء بالأنفتاح الحاصل بين بغداد وطهـران صعودا إلى اقليم التفـاح . . الذي يحتـاج إلى نخوة بـدوية تعيـد القلوب إلى مـواضعها . . . مـع وقفـة على اتفـاق الـطائف قـرب قصـر بعبدا . ونظرة إلى السبحات العربيـة التي انفرطت أو فـرطت وطفقت تأخذ اشكالا هجينة حيث يشـك الآن خرز اليسـر مع المرجان مع الزجاج مع العاج مع الكوارتز مع خرز التراب في خيط واحد مع شـرابتين وعشرة شـواهد ، ويمـزج الكفر مـع الأيمـان في وعاء واحـد فيـطفـو الكفـر ويتـرسب الايمـان ، ونترقب والعياذ بالله أن يخلط ماء زمزم مع شراب المارينز في اناء واحد . . ويمكن أن يعود يزيد وعبد الملك برفقة تشيني وزير الدفاع الأمريكي ليـدكا الكعبـة من جديـد كما يمكن أن

تستباح المدينة مرة أخرى لجيش يزيد . . . ويمكن ويمكن .

ثم الا يمكن الا يحدث شيء ابدا ؟ لذا قررت أن لا أخوض في هذا الشأن حتى لا أكون كمن يكشف البخت أو يضرب مندلا .

ولكن «قلتم لي لا تدسس أنفك فيما يعني جارك لكني اسألكم أن تعطوني أنفي
وجهي في مرآتي مجدوع الانف» .

أنا أريد جبل عامل . . فقط فقط . . . أريده واحة اتخفف فيها من أوجاعي . . . أقلع منها إلى الدنيا ، ارى الدنيا من ثقب ابرته ، أموت أو أحيا بارادتي وعلى ذوقي وحسابي .

ومن كان يدعي حبي والحرص علي فليترك لي هذا الحصير الذي صنعته من الياف قلبي . . . وأهلا وسهلا به ضيفا على القلب ، على التاريخ ، على الجغرافيا باتجاه فلسطين وحتى الأندلس . أما أن يجلس على الحصير ولا يعتني بالقلب ، فان ذلك قطع للرحم . واذا تقطعت الأرحام ، اذا لم تتق الأرحام تصبح تقوى الله امرا مشكوكا فيه . وهذا القرآن لنعد قراءته ، هذه سنة نبينا وأهل بيته وسنة التاريخ فلنقرأها .

مرحباً أيها الوطن*

لـو اقمتم احتفـالكم هــذا في بلد آخـر ، أعني وطنــا آخـر ، أعني وطنا ، أي وطن ، ولـو على ظهر سفينـة عائمـة غير راسية ، ترفع علما يخفق وحده ، لا خوفا ولا امتثالا .

لو اقمتم احتفالكم هذا في وطن له بـوابة واحـدة ، في وطن لـه سقف واحد ، في وطن لـه ذاكرة واحـدة ، في وطن واحد .

* في تأبين أحد فضلاء المـربين في قريـة أنصار .

لقلت لكم كلاما كثيرا .

لقلت لكم كلاما جميلا وغير جميل ، وعلى مسؤوليتي .

أما والوطن اضيق من ظل رمح!

أما والوطن تهمة!

أما ومن يُضبَطْ متلبسا بوطن فلا يلومن إلا نفسه ومن علمه .

أما الآن فاعذروني . . واسمحوا لي أن أقول كلاما شاحباً أو دميماً أو مضطرباً أو معقداً ، كلاما شوكاً أو رماداً كلاما موجعَاً موجعا ، متقطعا غير متقاطع .

وضعوا خطاً بالدمع الأبيض أو الحبر الأحمر أو الدم البارد أو الرصاص الطائش .

تحت الكلمات المعسولة والكلمات المسؤولة وغير المسؤولة .

امحوا كل الكلمات ما عدا حروف الجر .

لا تقرأوا ، لاتسمعوا ، لاتحفظوا ، واعتصموا بالنسيان . فتشوا بين الكلمات ، عن الذي في ادب الحب كنا يسمى قلبا .

ومن كان له قلب فليتقدم . . من كان له قلب فليأخذ له وطنا .

هذا الوطن حرام على الذين لا قلوب لهم .

أنهم يأكلون حراما ويشربون حراما .
يحبون حراما ويكرهون حراما
يحيون حراما ويموتون حراما .
يقولون حرما ويسكتون حراما .
ينامون حراما وينهضون حراما .

* *

اعذروني وأنا اعذركم
فلطالما تحملتم عني وتحملتموني وحملتم مني .

بذلتم لي صدور بيوتكم ، فاحدثت فجوة في الجدار الخلفي ولم أعد أدخل إلا ليلاً صحبة العقارب والجرذان .

ورؤوس موائدكم فقلبت المائدة على رؤوسكم .

واعواد منابركم فحولتها إلى عِصِيٍّ من كلام عَصِيٍّ وجلدتكم .

ومقدمة مسيرتكم فأضأت اشارة اليسار وذهبت يمينا .
واوتار حناجركم فآثرت العزف منفرداً .

واسرار اسركم فحولتها إلى تقارير أمنية . وصليتم على النبي وآل النبي كُرْمى لعينّي ، فأغمضت عينيَّ لأعيد النظر في الحديث الشريف : لا نبي بعدي .
لماذا لا نبي بعدي ؟

وأنا ماذا ينقصني لأكون نبياً ؟

كنت اذا ما افتقرت استغنيتم وآثرتموني ببعض جنى العمر ، فاذا ما افتقرتم بعتكم لأول مشتر ، فاذا لم يشتركم مني احد ، بعت نفسي على حسابكم ، ومنيتكم بالجنة ، لأن أكثر أهل الجنة من البلهاء . .

ولكن من فينا الأبله ؟ النهر أم غثاء السيل ؟ السلحفاة أم الأرنب ؟

كل الذين استهبلوكم بلهاء ، كل الذين يستهبلونكم أو سوف يستهبلونكم بلهاء . . . بلهاء بدون جنة .

***

لا أنا ولا أنتم ، اذن فمن يحمل المسؤولية ؟
تعالوا نحملها لسيدنا الوطن .

ولكن السيد الوطن هرب من عيون المواطنين ، هرب من الحبر والكلام الجميل .

أنه يتسلل بين طلقة وأخرى ، بين مدفع وآخر ، بين فتنة وأخرى ، بين صفقة وأخرى ، بين كذبة وأخرى . . يتلطى بين النوايا الحسنة والنوايا السيئة ، بين الجيش والميليشيا ، بين الدولة والمزرعة ، بين الأمة والدكان ، بين الطائف وسايكس بيكو ، بين النائب والنائبة ، بين الوزر

والوزير ، ولا يستطيع أن يدخل في الوطن ، يخاف أن يدخل في الوطن ، يقدم رِجـلا رَجُلا ويؤخـر رَجُلا رِجْـلا ، ويقضي بقية ليله مشدوَداً إلى ذيل خنزير لأنه فكر مرة أن يكون وطنا .

أيها الأخوة المواطنون .

أن السيد وطنكم موجود هناك على مقربة منكم ، أنه ما يـزال معلقاً على البلنكو في سجن انصار ، فليتحرك أقـاربه ، وذوو رحمـه ووجهـاء ضيعتـه وتجـارهـا وزوجتـه وبنـاتـه لأطــلاق سراحه .

وليسـرعوا فقـد ادركتـه عـوارض العجـز والشيخـوخـة المبكرة واشتعل رأسه شيبا .

وهو يخاف الموالي من ورائه وليست امرأته عاقراً .

ليعجلوا قبـل أن تشتعـل حـــرب الخليـج ويسقط بيت العنكبوت . . . وإلا أفاقـوا ذات صباح أو ذات ليـل ليجدوا انفسهم بدون وطن .

لا في الــوهم ولا فـي الشــك ولا فـي الــظن ولا في اليقين .

وإلا انتظرو خمسين عاما ليبنوا بالحجارة أو ينحتوا بالسكـاكين وطنـا من نوع آخـر ، حلم وطن ، وطنا . حلماً يوطن وطنـاً بحلم وحلمـاً وطنيـاً ، طيفـاً ولا يلبث العـالم المتحضـــر أن

يصادر الحلم بعد سنوات ثلاث أو أربع ، وننتظر قرنا آخر أو قرنين ولا يأتي صلاح الدين ولا الأشرف خليل بن قلاوون ، ويمسي الحلم كابوساً .

***

أيها الأخوة

تعالوا نبتكر وطنا ، تعالوا نكتب وطنا ، تعالوا نرسم وطنا ، تعالوا ننظم وطنا ، تعالوا نعزف وطنا ، تعالوا نغن وطنا ، تعالوا نبدع وطنا .

مدوا ايديكم إلى صدوركم ، لا تبخلوا ، لا تستحوا من العطاء القليل فالحرمان أقل منه . . اجمعوا في ساحة الضيعة ، أو باحة الجامع ، أو ملعب المدرسة ، ما تبقى في قلوبكم من حب ، اجعلوه كومة (عرمة) واطعموا منه الجائع والفقير والأرامل والأيتام وكل الذين لم يشبعوا على مدى خمسة عشر عاما من حب الوطن وحَب الوطن .

لفوه في محارم ورقية ملونة ووزعوه في الأعراس ، رشوا منه فوق رؤوس الأطفال واستمتعوا بشجارهم اثناء لمه ، وزعوه في علب (الراحة) ليالي عاشوراء ومع التين الأخضر على البيادر صيفا ، ومع التين اليابس شتاء حول مواقد (عصاعيص) الذرة . ولا تخافوا نقصا أو نفادا ، فصدوركم مباركة ، وتزكو على الأنفاق بضائعكم .

والخطاب السياسي الزراعي مات .
إنه ينزف عشباً وشوكاً اخيرا .

واتى زمان الكلام البلدي ، اتى زمـان الخطاب البعلي والخيـــام البـــلاستيكيـــة ، لتأخذها الريح ، لقد افسدت تربتنا واجسامنا واذواقنا . .

قولوا كلاما كثيراً . . على نفخ الأرجيل .
قولوا كلاما جميلا ، على شرفة الشاي ومصطبة البابونج .
افتحوا الذاكرة على الوطن .
افتحو الوطن على الذاكرة .

استعيدوا مناجل الحصاد ، حكوا عنها الصدأ ، وليالي الحصاد ، وقمر الحصاد وأغاني الحصاد .

اطمـروا افخاخكم جيـدا في التراب ، علمـوا أولادكم أن يطمروها ويضحكوا على عقل العضيض وأبي الحن .

وهذا الشتاء قد وافانـا ، علموهم أن يحملوا الفـوانيس ويطاردوا العصافير ليلا في الخرائب والبيوت قيد الأنشاء .

واذا ما انحبس المـطر ، صلوا صــلاة الأستسقـــاء ، والحوا في الدعاء ، وعلموا اولادكم أن يغنـوا : (يام الغيض غيضينا تانملّي سواقينا) .

وينـزل المطر ، تبتـل ثيـابكم . . وتهتـز الأرض ، تـربـو

وتنبت من كل زوج بهيج .

أني لا أحاول مستحيلا ، أني أحاول أمراً صعباً ولكنه غيـر مستحيـل . . استعيـدوا روح المـاضي لتكـون زوادة الغد . . ليتركب غدنا على أمسنا بحيث لا تنقطع الذاكرة ولا يضيـع الغد . . لنعش زمنـا واحدا ، كـالنهـر ، يتجـدد كـل لحظة ، ولكنه في مصبه لا ينفصل ولا ينسى النبـع والمجرى والضفاف والمنعطفات والجسور .

لا تيأسوا . . «فمن وثق بماء لم يظمأ»

ولن يضـركم من ضـل اذا اهتـديتم . . ولا تستعجلوا «فمجتني الثمـرة لغير وقت ايناعها كـالزارع في غيـر ارضـه» ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ﴾ .

***

يـا ابا مصـطفى المدرسـة ، يا ابـا المدرسـة ، يـا ابـا مـدرسة . هـذا صباح يـوم الأحد ، انهض الآن من نـومك ، متأخرا ساعة أو ساعتين ، مرتاحا من وعثـاء العلم والتعليم ، انهض الآن لا تبـدل ملابسـك ، اليوم عـطلة وغدا مـدرسة ، وبعد غد مـدرسة ، إلى نهـاية الأسبـوع ونهايـة الشهر ونهـاية العام ونهاية العمر مـدرسة . . . زمـاننا المـدرسة ، ومكـاننا المدرسة ، مجدنا المدرسة ، خـذ قهوتـك يا ابـا مصطفى ، خذها وسطا ، لا حلوة ولا مرة ، عثمليـة ، هل ادركت زمـان

العثملي ؟ وأيام سفر برلك ؟ لا شك أنها كانت احلى . . . واذا ما اردنا نصفا فانها كانت اقل مرارة ومشقة، صل على النبي يا ابا مصطفى ، لماذا ترشف القهوة بسرعة هكذا ؟ هذه قهوة وليست ماء باردا ، الماء البارد مقطوع وهذا آخر (القطوع) .

يا ابا مصطفى طوِّل بالك . . فالدنيا بخير والعام الدراسي بخير وفلسطين بخير والوحدة بخير والفقراء بخير ، والتلاميذ الذين لم يستطيعوا دفع اقساط التسجيل ، فضلا عن الكتب والدفاتر والمراويل ، بخير . . والأغنياء بخير واللصوص بخير ولكن خيرا ، يختلف عن خير ، كل الثوابت بخير ، والزبد يذهب جُفاء . . .

كل الثوابت من دين وعلم وحب وارض بخير ، وما تبقى سحابة صيف ، اسراب جراد تأكل موسما أو موسمين أو عشرة مواسم ، وتتلع الأرض جيدها ثانية وثالثة والفا ودهرا ، تلتئم الأرحام وتتواصل القلوب ، ويتساقط البزاق عن اعواد الصيفي وينطفىء الجعفيل في حقول العدس . .

﴿ قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا ، الذين ظل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾

(٢) إشارة إلى انقطاع المياه في الجنوب بسبب الفتنة

يا ابا مصطفى . . لو تمهلت قليلاً ، لنرى وترى ابا الليل يلملم فراغه ويأوي إلى فراشه الخشن باكراً ويشكو البطالة ويحاول الدخول في صفوف محو الأمية ، ولا توافق أمه أن يعمل لديها ولدالها . . وترى ابا الظلام يدركه الفجر فينام ، ولا يوقظه من نومه احد لأنه ما من احد بحاجة اليه ولا من احد يود أن يؤدي له تحية ، له الصباح ولا المساء ، ولا من احد يحب أن يرد له تحية ، أي تحية .

لترى ونرى كيف يترجل عن اكتافنا من ركبوا طويلا على أكتافنا . . ويخرج ابناؤنا واحفادنا من الروضات إلى باحة المدرسة إلى طرقات الوطن يلملمون الورد عن جنباتها ، يزدهرون علما وفرحا ، ويذهبون بعيدا وعميقا في الوطن . .

سلاما أيها المعلم ، مرحبا أيها الوطن .

السفير١٤/١١/١٩٩٠

نمط ينقرض

يعمُّ الجـودُ ربيعاً نبـات الأرض ، يزهـرُ العوسـجُ يومـاً شهراً ثم ينطفىء الزهر ، يبرعمُ شوكاً ولا تلبثُ العوسجة التي كانت ترفل بملوّن ثوبها أن تصبح شـوكاً وجسبُ ، شـوكُ ولا ثمرُ . لا تزهرُ السَّرْوة ، لا يعادلُ شموخ السِّـرْوة إلاّ عُقمها ، وما تثمرُ من عفصٍ ليس ثمراً بل يُتّخذُ كراتٍ للّعب حيث تعزّ الألعـاب واللُّعب . ويجهدُ الغـارُ في أن يعوّض قلة البضـاعة

(١) في تأبين المربي والمثقف الشعبي المـرحوم السيـد محمد بـاقر إبراهيم .

بالرائحة الزكيّة ، فيُقبلُ منه ذلك بتسامحٍ وغضّ نظر . . .

أمّا التّين فزهره متواضع ، لا أحدَ يتحدث عن زهر التين ، لا الفلاّح ولا الشاعر ، يمرُّ خفيفاً دون زهوٍ أو خُيلاء ولا يعلن عن نفسه بلونٍ أو برائحة ، وينعقد سِرّاً وينضج على مهلٍ وبتُؤدة ، يفيض حلاوةً ، يصّفرُّ وكأنه سقيم ، وبيُسْرٍ يُجتنى ، يناله الجميع صغاراً وكباراً كسالى ونشطين ، أخضرَ صيفاً ويابساً يدّخرُ للشتاء ، للمربّى وللسَّمر وأيام الفلاحة .

التّين إذن ثمرٌ ولا شوك ولا استطالات ولا شروط له على الأرض من السّاحل إلى السّفح إلى الجبَل .

تيناً أوْ كالتّين كان السَّيد الباقر : حلاوة في الحديث وطلاوة ، حلاوة تنعقد في الشفتين بسماتٍ تترادف حتى تعمَّ عدواها الحزانى ، رخاءٌ في الأخلاق ولا شوك . سلاسة في الطبع تمكِّن أقلَّ الناس احتفالاً بالمعرفة وأعجزهم عنها من كسبها دون عناء . وعِلْمٌ سِرِّيٌّ لانعرف من أين أتى وكيف! يفيض لأدنى هزّةٍ في وعائه ، وكلما توهمتَ أنك نقعْتَ غليلاً من معينه الثّرّ تبيّن لك أنّك ازْددتَ ظمأً ، وتخرج من بستانه بوفْرٍ وندمٍ على القناعة وعزمٍ على المعاودة ، وبستانه بدون سياجٍ أو ناطور ، كبساتين التين في موسم التّين . سهل المتناول في الساحل في الصرفند والسكسكية وعدلون ، كما في الجبل في النميرية والكوثرية وخرطوم والدّوير وفي يونين

من البقاع .

التّينـة هي التينة ، والبـاقـر هـو البـاقـر في القلب وفي الأرض وفي العين وفي العِلم ، هُـوَ هُوَ في الجُـرْد في صقيـع يـونين وبعلبك خـزّان دِفءٍ وأنس(٢) ، عِلْمٌ سـرّيٌ يشيـع في السّر ، ولولا حـديث الآكلين عن حلاوتـه ووفرتـه لظلَّ غُفْـلاً وسِرِّياً .

يُبـاعـدُ البستـانيُّ عـادةً بين شجـرات البستـان حتى لا تتشابك الأغصان وتتصادم الفروع وفي ظلّ الشجرة العظيمـة لا تنبتُ إلّا القزميّات هذا إذا أهملَ الفلاح أو تكاسـل . وبْينَ الـدَّوحتين الكبيرتين : السيّـد محمد إبـراهيم والسيّد مهـدي إبراهيم ـ نَبَتَ ابنُ أخيهما الباقر شجرةً واعدةً أحبطتْ صروف الدّهر كثيراً من وعودهـا . ولكنه عـاندَ الـظروف فاشتـدَّ عوده واقترب من الدّوحتين ، يتفيّأ ظلالَ هـذه مرّة وتعـانق أغصانـه تلكَ مرّة أخرى . وكانا كريمين معه ودودين ولَمْ يكن هو فِطراً ولا نباتاً طفيلياً . نما وأثمر وأينع وارتفع ولـم يتطاول ، وغذّياه فتمثّـل وامتثل ، وتـذوّقـا فيـه نكهـةً لم يجـداهـا في غلّتهمـا وثمارهما على وفرتها وغناها .

هناك ثنائيّةٌ تضعُ الكثيرين منّا بين خيارينْ ، ويظن الكثير

(٢) كل القرى التي ورد اسمها هي قرى علَّم فيها السيد باقر .

منّا أن لا ثالثَ لهما : ثنائية العالم والعامّة وثنائية الشّباب والشيخوخة . فمرةً يرى الواحد منّا أن علاقته بالعامّة قد غلبتْ صفته العلمية ، ومرّةً يرى نفسه منفصلاً عندما يجعل بينه وبين العامة مسافةً تجعله يعيش حالةً من التصحُّر واليباس . فترى الشيخ يبالغ في حكمة الشيخوخة ووقارها موغلاً فيها حدَّ الإنغلاق والجفاف ، والشابّ الذي يتخفّف بذريعة العمر والفتوّة يصبح غريباً لاجئاً يقعد طويلاً على باب الحكمة ، لا يطرقه ولا يدخل . أما السيّد الباقر فإنه لم يتخذ قراراً ، وحلَّ المعادلة فطرياً ، أو قلْ لم يحلّها لأنّها لم تكنْ معضلته ، فهو عامّيٌّ عالم بمعنى أنه جزءٌ من العامّة لا يتميَّز عنها إلّا علماً . فهو واحدٌ وله مستويان من السّلوك لا وجهان ، له حقيقة واحدة لها مظهران : مظهر العالم ومظهر العاميّ ، مظهر الشابّ ومظهر الشيخ . لم نكن نحسُّ معه بارتقاءٍ إلى مستوى شيخوخته أو بالنزول أو التنزل من شيخوخته إلى مستوى عمرنا .

كنا مضطّرين معه إلى قبول شعره والإستمتاع به برضىً كلّي ، رغم مخالفتنا النّقدية له فالجودة قد لا تتأتى عن حذقٍ في الصناعة أو اختيار مدرسي وإنما تكون غالباً من داخل الشاعر .

كان الباقر يحاول أن يقول داخله شعراً ، يعطيك شعراً

مفتوحاً فيه مساحاتٌ بكْر تستدعي من يرتادها ، وبين شفتيه وأُذُنيك وبين يراعه ودهشتك تكتمل القصيدة ، فتحُبها أكثر لأنك شريك في الإحساس بها ، وكان الباقر سرعان ما يفجأك بطرافةٍ تدهشك وتضع حداً لأحتمالات المَلَلِ والرَّتابة . كنّا نتسامح معه نقديّاً لأنه كان يتوخّى الإبداع وهذا التوخيّ هو بحد ذاته إبداع أو شرطٌ من شروطه .

كانت الحوليّات وما تزال المنهج الأمثل لكتابة التاريخ وقراءته ، حيث يظلُّ الماضي على تشكيلته الأولى ويبقى التاريخ سجلاً له وإشعاراً بإمكان التواصل وإعادة الإنتاج أو القطع والإنقطاع . قرأ السيّد الباقر التاريخ في مصادره الأولى واستشعر فيه قابليةً للإستعادة والإستحضار فكان يضيف إلى حلاوة الرّواية وجاذبيّة الحدث المرويّ جاذبيَّة المحدث المعيد بحيث كان يندمج في الدّور عندما ينقل كأنه شاهدٌ أو شريك فِعلّي . كانت بعض أطراف وشواخص الحدث تتلبّسُهُ ، فإذا ما أعوزه النّص أو نسيه أكمله من عنده فينطلي كأنْ لم يحصل انقطاع في الرواية أو السِّياق . وإذا ما عدت إلى الحدثِ الذي يرويه لمْ تجد في النّص نَفْسَ الحلاوة التي آنستها في روايته . وبذلك استطاع أن يكون ذاكرة تاريخية لدى من عاشروه من غير المختصين والعاديين في تحصيلهم العلمي ، كما أنه فتح أذهان المهتمّين على أمور في التاريخ لم تكن لتخطر لهم لولا ما لامسوه من نْبضٍ في الحدث

الذي تعطيه رواية الباقر له حياة وحركة .

لقد ظن أولاده أنهم تجاوزوه عِلماً وفكراً وتجربة ، كما ظننا جميعاً أننا تجاوزنا آباءنا . قد يكون البعض قد تجاوزهم معرفة ، ولكنّ أكثرنا لا يستطيعون أن يدَّعوا بأنهم تجاوزوا أهلهم حكمةً وحُبّاً وأدباً . وعندما شارف أولاده نضجهم عادوا إلى كنزهم فوجدوه في السيّاسية مثلاً محبّاً للحق والصدق والعطاء ولو كان من الخصْم ، كارهاً للإدعاء والمراوغة ولو كانت من الصديق والمحبّ . وهذا ما لمْ نتعلمه من السّياسة وفنّها ، نحن وأولاده عندما عاودتنا صَحْوتنا أو حِكمتنا برِئنا من مَرَض الإحتراف السّياسي . ولكناّ ما زلنا عُرضةً للجراثيم . أمّا هو فقد عاش ومات بريئاً معافى ، ونحن لا نزال ننشدُ العافية ، وأنّى لنا العافية وكلُّ ما حولنا ينضحُ بالوباء ويندى بالتّلوث .

هذا النمط في الرّجالِ نمطٌ يكاد أنِ ينقرض أو هو في طريقه إلى الإنقراض . أوْ ونقولها بكلِّ حسْرة : إنه إنقرض فِعلاً .

فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قراءة في دفتر السفر*

بايعته عشرة بواحد .
مائة ، ألفاً ، فباع .
عاطيته نهراً من دمه بصاع من الحبر فأمضى .
بادلته رغيفاً بحقل حنطة .
فما استمهل ولا استقال .
صارفته ذهباً بفضة ، بحصى ، بتراب .
فما استشعر غبناً ولا غشّاً .

(*) في ذكرى الشهيد الشيخ راغب حرب .

سبقته مرة ، لأختبر قدرته على العَدْو .
فما هالني منه إلا أنه قعد ينتظرني حتى أعود ، وأعدَّ لي ماءً بارداً لعطشي .
كاثرته بعُصبتي ، فأخلى لي الرحم والعرق ، واستعمر قلوب الأهل .
تبارينا كلاماً ، وعندما علا صوتي على صوته ، لاذ بصمته فلذت معه بصمته ، تعلمت ، اهتديت الى لغتي ، عرفت . . عرفت من أين يؤتى القلب؟
في طفولته وشبابي ، خبَّأ صورتي بين أشيائه الصغيرة .
وفي كهولتي وشبابه .
عندما بلغ ريعان شبابه .
عندما انعقد سلاف التين الناضج دماً شهياً وعذباً . .
لم تعد دفاتري ولا حيطاني ولا أضلعي تليق بصورته .
وعندما أمعنت النظر في عينيه على حائط المسجد ، استشعر في عينيَّ عتاباً وشوقاً . .
ترجَّل من صورته .
ومازحني قائلاً :
متى تصعد الى صورتك؟
متى تأخذ مكانك في الملصق؟
قلت له الصيف ضيعت اللبن .

* * *

استوهبته عباءته ، فأبى .
فقلت: أَلْحَنُ في القول ، عليّ أفوزُ بالعباءة .
فقلت له: انها جميلة ونظيفة ومغرية . . دعها لي . . أحفظها من الغبار والأَرَضَة ، وخذ عباءتي ، فاليهود خبثاء وعيونهم فارغة وضيِّقة . . فأبى . .
وظل يتمخطر بها أمام أعين اليهود ، مرة يلف بها يتيماً يعابثه .
ومرة يلتحفها وينام على حصير المسجد العتيق بعد ظهر نهار رمضاني .
ومرة يفرشها ويصلي ، ويدعو الأصحاب الى الصلاة عليها ، فتنعقد الجماعة ، ويبقى مكان لأطفال المبرَّة ، والضيوف من الشرقية ومعركة والحلوسية ، ولجنة الاعتصام .
حتى عيل صبر اليهود .
فأطلقوا عليها رصاصات حارقة متفجرة ، في ليل شباطي ، ليلة جمعة ، بعد دعاء كُميل ، من وراء جدار وفروا . . هربوا . . أحدثوا في العباءة ، ثقوباً تعدّتها الى خاصرته ، حزم أمره وأمرنا وسافر .
سافر ، وكتب الى الشباب يقول:
الأشغال هنا ميسَّرة ، والتجارة رابحة ، والأخلاق عالية ، والحب كثير ، والكفيل موجود وأمين .
على أن لا تستعجلوا .

ومن كان له شغل في المزرعة .
فليبق حتى أوانه .
من وثِقَ بماء لم يظمأ .
لا تقطفوا الثمرة لغير وقت يناعها . . .
وأخذ الشباب يسافرون زرافات ووحداناً .

* * *

وذاعت الأخبار في الأقطار أن شباب جبل عامل يحرزون نجاحاً في مهجرهم ، ويتواصلون على البعد مع المقيمين . . .
والمقيمون ينامون بعض النهار ، ويقومون أكثر الليل على بنادقهم ، ويرسمون الآتي من الزمان ، على وجنات الربى ، وخواصر الجبال ، وخاطر الوهاد .
واستعيد المأثور من قول الرسول (ص) .
« ستكون هجرة بعد هجرة ما قوتل الكفار » .
سافر الاسلامبولي وخاطر وعبود الزمر وعبد اللطيف الأمين . .
وفي الجليل والدهيشة والأمعري وطولكرم ، كان الشباب ممنوعين من السفر ، كانت هوياتهم مصادرة ، وجوازاتهم مزوّرة ، وصورهم لا تشبههم . . .
كسروا القيود والحدود .

فتحوا طريقاً يفضي الى التاريخ ، أزالوا العوائق .
وسافروا في الحجارة على متن الحجارة .
هتفوا للقسام وراغب حرب .
ومال الماضي على الحاضر كما يميل الزنبق على النرجس .
فاح الدم عطراً نفاذاً . . .
وبزغ المستقبل كما تبزغ الكمأة في الأرض الصعبة . . .
إبان مواسم الرعد .
سافر . . ترك لنا العباءة ، يطلع من أكمامها كل يوم مقاتل ،
ويعبر من ثقوبها كل يوم شهيد .
وعندما أمكنتني الفرصة منها في غيابه ، ارتديتها فألفيتها واسعة ، تتسع لقرية بكاملها ، لأمة بكاملها ، لقارة بكاملها ، لتاريخ بكامله ، ولكنها لا تتسع لمراوغٍ أو مغرور أو منافق ، أو مخذِّل ، أو جبان أو آكل سُحت ، أو نهَّاز فرص .
لا تتسع لجائر .
لا تتسع لحاكم .
في العام الأول .
كان يزورني لماماً .
في الحلم تارة وفي اليقظة طوراً .
أغلق كتابي ودفتري لأقرأه وأكتبه .
أبذل له الوسادة ، الأهداب ،

يعافها ويفترش الأرض وقلبي .
تقفز الأرض تستريح في حضنه .
أرى تواصلاً واتصالاً غريباً بينها وبين القلب .
تأخذ الأرض شكل القلب .
ويأخذ القلب شكل الأرض .
يدوزن سيكارته الأخيرة .
يفضل ورق الشام .
يضع كيس التبغ البلدي في جيب قميصه الأبيض .
ينفض التراب عن قدميه العاريتين ،
ينهض بدون كلام ، بدون كلام ، ويمضي ، ماضياً مضيئاً يمضي .
استمهله للغداء ، للحب ، لقبلة . . .
لضحكة طويلة .
يضحك ضحكة قصيرة وعريضة ويمضي ويتركني في شوقي وفي غضبي .

* * *

في عامه الثاني صارت زياراته تطول وتتكرر .
وعلى طول مُكْثِهِ صرت أتأمله وأتملّاه أكثر .
كأن له باطناً في باطن في باطن .
ولفرط وضوحه تخاله غامضاً وسرِّياً .
أخبركم والعهدة عليّ :

رأيت في عينيه فرحاً سماوياً . . .
تبنت على حواشيه أشجار الدفلى والغورْدَل .
ذهبت في عينيه بعيداً ، لامست شغاف القلب ، وكدت أغفو لفرط الدفء .
قال : الفجر قريب فاصبر .
ومن يطل السهر حتى مشارف الفجر أنَّى له أن ينام ان كان تقياً .
وإلا فاتته الصلاة . وأحبط تعبه ودمه وصبره ودعاؤه .
ومن لا يريد أن يصافح الفجر فلينم .
يفاجئه الفجر .
قل للصحب أن ينتبهوا .
يساورني خوف على الأرض والشجر .
قل لهم ان الفطر والمرض والنبات الطفيلي أشد رغبة بالأرض الخصبة والشجرة الطيبة ، منه بغيرها .
فليحكموا السياج والوقاية وليحذروا الترهل .

* * *

في عامه الثالث ،
لم يعد يغادر عيني ولا عقلي ولا قلبي ولا بيتي .
يقف بيني وبين أطفالي ، إذا ما ضربت أحدهم بعصا تلقاها وأعطاه وردة . . .
يحرضهم علي ، يطيعونه ويكذبون علي ، ويكبرون كل شهر

سنة بالسر ، ويسبقونني إليه .
يستبيح دفاتري وحبري وأقلامي .
عندما أكتب عن الورد أجده بين أوراق الوردة .
يحرن اليراع . . وتقصِّر اللغة وتقْصُرُ ، عندما أكتب عن أبي أجـده في وجهه ، في غضـون جبينه ، في شقـوق راحتيـه ، فيأخذني المشهد ويفوتني الكلام .
عندما أكتب عن الإمام الخميني ، أجده في عبـاءته ، يـأتيني الوجد ، تأتيني الحال ، أرى شموساً وأنهـاراً ووعوداً بـالمطر والثلج والدفـء . . أبتلّ عـرقاً وأرتجف بـرداً وأفرح ، أفـرح حتى آخر شبر من الأرض المحتلة .
عنـدما أكتب عن فلسـطين يسبقني الى مخيم جباليـا ، يعانق الشيخ عبد العزيز ويقيم الجماعة في جامع القسَّام .
ويوزع أدوية مضادة للسعال على أطفال المخيّم .
يسد بقطع من قميصه مسارب المياه في سقوف التنك .
ويكتب اسمه على الحجارة ليتحمل مسؤوليتها .

* * *

في العام الرابع .
أخذ علي نصور وحسن داود وعبـدالله ومحمد بحمـد ومحمد هاشم وصالح حرب وقـال: عليهم الزواج وعليَّ المهـر (من شهداء المقاومة في قرية الشهيد) .
فقال بلال فحص: لا تصدِّقوا . . في الجنة لا توجد مهور .

لكزه بعصاه وقال: اسكت يا بلال لماذا تكشف أسرارنا؟
قبل أن تكتشفه جدته وتعـاتبه على طـول الغياب لـوَّح بعصاه جنوباً ومضى . .
قبل أن يغيب عن العين ليمعن في القلب . .
أشار الى الشرق مرة . . . وإلى الجنوب مرة . . .
ويتحدث الأطفال عن صوته في الريح .
والخطباء عن كلامه في الصمت .
والفـلاحون عن لـون عينيه في قـوس قـزح وبشـائـر الصحـو والصحوة ، والفلاحة والبذار والفلاح .
والمقـاتلون عن ريادتـه في الـدروب الصعبـة . . في الـزمن الصعب ، والأرض عن وقــع أقــدامــه حيث تنبت شقــائق النعمان وتزهر الهندباء . . والبلّان .

شباط ١٩٨٨

بلاغة الصمت

ـ كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ـ

أمس رأيت أبا أمين(١)

قرأت في عينيه إنذاراً شديد اللهجة ،

قال أبو أمين : يا سيد ، هـذه هي المرة الثـالثة! إن لم تكتب فمن أين نأتي بالدليل على حبك للشيخ عبد الله ؟

في الذكـرى السنويـة الأول لوفـاة المرحـوم الشيخ عبـد الله مديحلي شتاء ١٩٩٠ .

(١) أبو أمين والأسماء الاخرى أقارب وأصدقاء الشيخ مديحلي .

تمنيت لو كنت حاضرنا يا شيخنا ، إذن لأنقذتني من خجلي وحرجي

لتأخذ قلبي مرةً أخرى ، تقذف به حيث تشاء . . .
إلى المنصوري أو القليلة أو غزالة(٢)
إلى أبي نزيه ، أو الحاج محمد علي وسهيل
إلى فلسطين ، إلى الموز والخروب وأبو صرة .
وأذهب في طلب القلب ، أراه عالقاً بحب فأحب . . .
ألمه وأعود به إليك ، وتقذف به ثانية وثالثة وألفاً
وأبقى أبحث عن مدى عينيك ، عمن وعما تحب لأحب .

وهل بقي شيء في هذه الدنيا أحببته ولم نحبه ؟ وإلا فمن أين هذه السلطة ، وهذا الإستبداد العادل لكل ما ومن في المنصوري علينا ؟ .

ومن أين لنا هذا الحب الذي يغمرنا به كل الذين أحببت وأحبوك . . . حتى ولو لم يعرفونا .

نلتقي فيك ، وكأن رحماً جمعتنا يا شيخ عبد الله .

ما حيلة العاجز إن لم يحرز دليلاً مكتوباً ؟
ذنبي أني متهم بالكتابة .
بلى ، أنا أكتب وردة ، أكتب لوزاً ، زهراً أو ثمراً .

(٢) المنصوري قرية الشيخ وغزالة ربوة قربها والقليلة قرية مجاورة .

أكتب نسمة ، أكتب نجمة .
أنا لا أكتب بحراً ، لا أكتب برقاً ورعداً ومطراً
لا أكتب صحواً مشمساً في موسم قر
لا أكتب بلاغة صمت
لا أكتب حياةً في موت .
لاأكتب قبراً مكتظاً بالحركة ، محتشداً بالعبادة .
أياماً ولياليا .
أفردت أوراقي البيض
وفي كل مرة كان يأتيني بكل تفاصيله .
يدني عمامته على جبينه
ويستلقي على الورقة ، لا يترك لي هامشاً .
يتوسد ذراعه اليمنى ، وتهتز لفافة التبغ بين أصابع اليسرى
فتشغلني عن الكتابة
ويقرأ مرثية مالك ابن الريب لنفسه
فأسمع في قراءته شعراً آخر
لم يكتبه مالك ، وأدخل في المشهد ، أدخل في الحال ،
يشغلني الوهج عن النار ، وأغفو

أستدعيه في منامي فلا يأتي
لا يأتيني إلا في اليقظة . . . فماذا أصنع ؟ أرخي عيني في
صدري .

أتمايل على خيط يفصل بين الحضور وبين الحصول .

وأبكي .

يا من تملكون في حضرته كلاماً .

أبعدوه عني قليلاً لأكتب ألف دفتر .

ما من دفتر من دفاتر أولادي إلا وعلى بعض صفحاته .

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ الشيخ عبد الله ـ

تمتلىء الصفحة بالخراطيش والخرابيش .

في آخر الليل أوقظ ولدي حسن من نومه ليسعفني . بجمع كل دواوين الشعر التي في حوزته ، علني أتعلم الكتابة من جديد .

أستعير أجمل القصائد وأطولها ، حديثها والقديم ، وأقيسها عليه ، يفيض ، يترامى ، ويقصر الشعر . . .

أقرأ قصيدة السيد أبي علي فتدركني الغبطة

وأقول سلاماً ، هاأنذا إذن على الباب وأبو علي دليلي ، مهلاً يا شيخ عبد الله ، سأكتب بالدحنون عينيك ، وأنسخ لون القمح في وجنتيك ، وأسجل ضحكتك العريضة الكثيفة الخضراء كورقة موز .

ولا أكتب

تصبح الغبطة غيرة ، ولا أكتب

(٣) أبو علي هو الصديق السيد محمد حسن الأمين .

تصبح الغيرة حسداً ، فيقتلني حسدي .
وأنام . . . لا أنام
مضناك جفاه مرقده .

* * *

قلت : استكتب شخصاً آخر
وكثيرون يستكتبون الآخرين

يصادرون حبرهم ودفاترهم ، وأحياناً ، دمهم يسفحون ، يهرقون ، بلا حساب .

ويتلذذون ، يمصمصون شفاههم ، كما لو كان الدم من خوابي آبائهم والحبر من جرار أمهاتهم ، أو عطر نسائهم .

ويضنون على الناس بقطرة عرق
بلحظة نقد أو احتجاج .

ولا يضنون بالحبر ، لأنهم لا يعرفون رائحته ، ويكرهون لونه ، يطلقون ألسنتهم الطويلة في الهواء ويقولون كلاماً كثيراً .
لا يقولون شيئاً .

ضحك الصحب من طموحي المستحيل وغير المشروع حتى العظم . وأشفقوا علي من رصاصة طائشة أو كاتم صوت ، فاعتراني الوجع

بلغ الوجع مفاصل اليراع ، حتى أني لا أميز بين اليراع وبين القلب .

أليست مسافة موضوعية ما ، ضرورية بين اليراع والقلب ، ليكتب اليراع وجع القلب ؟
إذا ما توجع اليراع فمن يكتب ؟
من أين تأتي اللغة ؟
تصبح اللغة مرضاً والرؤية حمى .
يا شيخي أنا محموم .
فهل لي ، هل لك ، هل لنا بكأس من عصير الماوردي ؟
دماً حلالاً أو برتقالاً ؟
معذرة ، فإني أتقن التين والزيتون
ولا أعرف مواسم البرتقال وأسرار الليمون .
ولعل الموسم هو موسم اليافاوي
وإني لأخاف أن يصبح بديلاً من يافا
كما أصبح الإبريق بديلاً من النهر
والمستنقع بديلاً من البحر
وشرفة المنزل بديلاً من الوطن
والكلام بديلاً من الوعي
والدعاء بديلاً من الفعل
والحزب بديلاً من الأمة .
والمخلوق بديلاً من الخالق

كما أصبح كل جزء بديلاً من كله
وكل جزئي بديلاً من كليه
وكل فرع بديلاً من أصله .

يا نهر ، يا بحر ، يا كلنا ، يا كلينا .
يا أصلنا ، إليك قلبي بديلاً عن الكلام
يا أوسعنا عباءةً وقلباً ، يا أحلى الكلام .

. . . منذ أيام قرأت اقتراحاً لمفكر غربي يقترح إعطاء جائزة لكتاب عن كتب لم يكتبوها .

آه لو كان بإمكاني أن أسمعكم مالا أستطيع كتابته . إذن لأدهشتكم دون أن يكون لي فضل عليكم ، لأن في داخل كل منكم عن الشيخ عبد الله ما يدهش كلا منا ، دون فضل لأحدنا في ذلك . . . ففي داخل الشيخ عبد الله عن كل منا ما يدهش كلا منا .

حارس المقلع والمقلاع (*)

اخال الإمام السيد موسى الصدر يصله خبر استشهاد أبي جهاد ، فيضطرب ، يكف عن تلاوة دعاء الافتتاح مساء أول أيام شهر رمضان لا تبدو عليه ، للوهلة الأولى علامات الحزن . ويأخذ بالسؤال عن التفاصيل .

ويعرف أن اليهود ، قد فكروا طويلاً وبذلوا جهداً غير عادي واستحضروا أحقاداً وذحولاً كثيرة وقديمة وذهبوا إليه وافرغوا في جسده خمساً وسبعين رصاصة وفي مكتبه مئة ،

(*) بمناسبة استشهاد القائد خليل الوزير (أبو جهاد) .

وأعلنوا فرحهم الغامر بفعلتهم .

وان الارض المحتلة هاجت وماجت وسالت حواريها وأزقتها بشراً واعلاماً سوداً وحجارة وحباً ودما وغضباً .

تفلت دمعة من عين الصدر ، تحفر اخدوداً في الخد ، تتلقاها شفتان تزهر فيهما بسمة ، ويتجادل الحزن والفرح في وجهه وعينيه .

ويقول : ليس مفاجئاً ، المفاجىء أن يبقى أبو جهاد حياً هذا الزمن الطويل . . . وليس محزناً ، المحزن أن يموت أبو جهاد على فراشه أو برصاصة طائشة أو ضالة . أما أن يقتل أبو جهاد برصاصة يهودية ، وهو متربع على عرش رفيع من الحجارة من كل العيارات . راعياً لمنعطف ومتحول غني في تاريخ الجهاد ، فإن ذلك يطابق التوقع ويبعث على الفخر .

يدعو إلى الفرح ويحزن . يتهلل بشراً ويبكي

لقد كان أبو جهاد من الوضوح والتهذيب والهدوء والانضباط والتركيز على الهدف والاصرار على استجماع القوى واعطاء الأولوية للاساسي والاصلي من الهموم ، بحيث استطاع أن يلغي المسافات ، وطنية كانت أم مذهبية أم سياسية ، بينه وبين من يتسع عقله وقلبه وايمانه لمثل هذا الالغاء . فيلتقي هو ومن يماثله وعياً لموقع فلسطين ، لقاء لا

تعكر صفاءه اشكالات أو تعقيدات أو انكسارات في مسار الجهاد .

ومن هنا كان موقعه في قلب الإمام الصدر ، ومن هنا كان الإمام يسر إلى من يحبهم ويأتمنهم بحب أبي جهاد والثقة به والاطمئنان إلى نهجه سلوكه وكلامه ونواياه .

وهذا ما يفسر إلى حد بعيد ، هذا الحب الذي تعدى الإمام الصدر شخصاً إلى الإمام الصدر نوعاً ، سواء في رجال الدين المسلمين الشيعة أو في القواعد التي عمل الإمام الصدر على تجهيزها بالوعي اللازم للمساهمة في معركة التحرير وكان لأبي جهاد دور مميز في عملية الإعداد هذه مما جعل هذه القواعد تتعامل معه كواحد منها ورائد من روادها .

* * *

ست صفحات ـ منها الصفحة الأولى ـ من جريدة السفير احتلها أبو جهاد شهيداً .

ولو لا ضرورات المهنة لاحتل الصفحات الأربع عشرة . ولفاض عنها واحتاج إلى أضعافها ، لرصد دلالات شهادته وتاريخها ومؤشراتها ، وعيدها ووعودها . صورته في الانتفاضة .

والانتفاضة في صورته .

وجهان لحقيقة واحدة . . حتى تداخلت الأخبار واختلط الكلام . وانفتحت الذاكرة على الرؤية ، فإذا الغد في الأمس والأمس في الغد ، وكلاهما يتألقان في الدم المعطاء ، في الوجه الذي انطفأ لتشتعل الأرض والناس والنار والحجارة .

وعدنا مع الاستاذ طلال سلمان والاستاذ شفيق الحوت ، إلى البواكير ، إلى الخطوة الأولى ، والعملية الأولى ، والدهشة الأولى ، والحب الأول .

كأن لم يكن هناك خلاف أو اختلاف أو اعتراض على النهج مرة أو على السلوك اخرى . كأن لم يكن التباس أو دم ملتبس أو كلام ملتبس أو انفعالات غضب أو كلام غاضب ورد غاضب بالكلام مرة وبالرصاص مرة اخرى ، وطلع علينا أبو جهاد من الذاكرة متشبثاً بالاصل ـ فلسطين ـ متعالياً فوق التفاصيل والالتباسات .

وهل يوقظ الذاكرة والذكرى الجميلة إلا ما يطابقها أو يعادلها صفاءً ونقاء؟

وهذا أبو جهاد يأتي مكللاً بالحجارة يشهد لها وتشهد له .

ذهبنا معه إلى الأصل ، التقينا كأن لم نفترق .

وقال الاستاذ طلال سلمان كلاماً قديماً ، بدا وكأنه حار وطازج قد قيل البارحة .

واستعّاد من كلام أبي جهاد كلاماً بدا منطقياً جداً ومطلوباً الآن وغداً ، وكأنه قد قاله صباح السبت الأول من الاسبوع الثاني من الشهر الخامس من الانتفاضة الثالثة أو الخامسة أو العاشرة أو الأولى . . ولكنها ليست الاخيرة ولن تكون الاخيرة .

* * *

يوم كان شاهداً كانت السفير وغيرها من الصحف ، تضعه ليلاً في الصفحة الأولى ، وعندما تخرج صباحاً على قرائها يكون قد اغتنم الفرصة وتسلل خلسة من الصفحة الأولى وكمن بين السطور والكلمات أو في خلفية الصورة ، في زاوية من زوايا صفحة اخرى .

تضعه في العين فتجده في القلب .

تحبسه في العنوان العريض فيثقب الجدار ويحتل المعنون .

تفتقده في القول فيدعوك إلى الفعل .

ويبدأ صمته حيث ينتهي الكلام .

يخرج من صورة المجاهد إلى مادة الجهاد .

ويفر من لون الورد إلى عطره . . من البيان إلى العملية ، من البزة العسكرية إلى مسمار الأمان في القنبلة .

من القصيدة إلى الشعر من حقل الالغام الداخلي إلى فلسطين .

وقد صار شهيداً . . . جسداً مثقوباً بخمسة وسبعين وساماً ، مزيناً بخمس وسبعين وردة ، امكنت السيطرة عليه واعتقاله ، ولم تعد تكفي صفحة واحدة أو عنوان واحد لهذا الجسد المترامي الأطراف .

لهذه الجراح الفسيحة . لهذا الدم السخي

لهذه الخارطة الكونية .

لهذه القارة من المناخات والأشجار والشموس والأقمار .

لهذه الفلسطين ، التي تستيقظ وتعصف كلما دست لها الحبوب المنومة في عصير البرتقال وزيت الزيتون وماء البيارات .

تستاف عبيراً من دمها وتنهض وتعصف

ما الذي حصل . وهل انتصرت السفير على خصمها الحميم أبي جهاد ؟

لقد انتصر القلم حيث انكسر القلب .

قلم منتصر في اليد يكتب عزاء للقلب المكسور في الصدر .

ويؤرخ للحجارة ، ولحارس المقلع صانع المقلاع .

ويبقى الصمت أجدى لمن لا يحسنون رمي الحجارة أو ارشادها وتحديد إحداثياتها على خارطة الضفة والقطاع والناصرة والوطن العربي .

السفير آذار ١٩٨٨

نبع ونهر وحارس*

« إن البحث الرئيسي والحيوي في عصرنا يتمثل في اتهام أسطورة « التقدم والنماء » الانتحارية على الطريقة الغربية ، لأنها مذهبية تتميز بالفصل بين العلوم والتقنيات والحكمة والجماعة » روجيه غارودي .

عندما كنا ما نزال في سياق الآخرين ـ الغرب ـ كنا عرضة لما يترشح من أدوائهم .

(*) في تأسيس مؤسسة الشهيد بلال فحص التربوية صيف ١٩٨٦ .

لم نخرج بعد ، . . أخذنا أهبتنا ، نقلنا أقدامنا وأقلامنا وأصواتنا ، خطوات نوعية على الطريق .

إننا مدينون لمن دشّنوا مسيرة هذا الخروج ورسموا مساره . ـ والخروج من الآخر دائماً يستتبع الدخول في الذات ـ وعياً وفعلاً ـ .

ومن الذين دشّنوا وأسسوا ، بل في طليعتهم ، الإمام السيّد موسى الصدر . . . قبل أن يدشّن ، كان هناك انكفاء ، ما بدا أنه انكفاء ، لم نكن ضده وكان ضرورياً .

كان منطقياً أن ينتحي الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين زاوية المؤسسة/ بيته/ لا يخرج منها إلا إلى محراب أو دفتر أو كتاب ، بعيداً عن السجال غير المتكافىء مادياً مع مشروع الاستعمار في أكثر مراحله غلبة وسطوة . . . ولو لم يفعل ذلك لوقع في حوار غير متكافىء كذلك مع ذلك المشروع العادي المعتدي . . والذي طالما صاوله وما هادن .

في الفترة التي غاب فيها السيد شرف الدين ، كان المشروع الاستعماري قد بدأ يكشف سوآته على وجوه وكلائه ، وكان مناسباً ومنطقياً إغلاق تاريخ الإنكفاء وفتح باب الاسلام على العصر . . . أو لنقل إغلاق باب المداورة وفتح باب المجاهرة .

وامتدت يد صناع ، يد السيد الصدر ، من موقع واثق بالأصل والرؤية ليغلق ويفتح . وأخذت مفاهيم تسقط ومفاهيم تنهض ، سقط مفهوم رجل الدين التابع ونهض مفهوم رجل الدين الطامح ، سقط مفهوم المثقف المنفصل ، ونهض مفهوم المثقف المتصل المتواصل الموحد ، يأتي من الواقع ويعود إليه ، يغترف منه ويصب فيه ، ويتوازن بين موقع القيادة والريادة وموقع الاندماج في الجماعة والأمة .

سقط مفهوم التقني الغربي الذي ما ان يسيطر على الآلة حتى يصبح آلة في الآلة . . . ونهض مفهوم التقني الشرقي المسلم الذي يمتلك الآلة ولا تملكه ، يؤنسنها ولا تؤلينه ، ينتج ، يدير ، ويبقى مسكوناً بهاجس الشمس وفرح المطر ومواعيد الزهر والحب والندى .

سقط مفهوم المؤسسة البشر/ الحجارة ، ونهض مفهوم المؤسسة الحجارة/ البشر ـ لقد قاتلت مؤسسة جبل عامل في صور لا بأبطالها محمد سعد ، وخليل جرادي ، وحسن مشيمش ، وحسن قصير ، وماهر حرب ، وحسب ، بل وبحجارتها أيضاً . . . اسألوها . . . تقل لكم ما زالت جاهزة لأن تصفع أقفية المحتلين .

وكان السيد الصدر نموذج المثقف العالم المسلم الزارع أقدامه في تربة التراث الغني ، الموسع بصره وبصيرته

نحـو المستقبل: وكـان الشهيـد جمـران نمـوذج المتخصص الملتـزم حد التحـدي والشهـادة على طـريق الاعتصـام بـالله والاسلام والوفاء لعاملة والعامليين والإلتزام بالمحرومين وأبناء المحرومين ، وعلى راحتي الإمام الصدر وساعديه حيث ينـام مـلاك ويصحـو مـلاك . . . وينبت الـريحـان ويـزهـر الصعتـر . . . وعلى شفتي الشهيد جمـران المفترتيـن إبـان العـروج عن سبحة عـرفانيـة بعيـدة المـدى والصـدى . . . وعلى دم محمـد سعـد ، وبـلال فحص . . . تـطلع هـذه المؤسسة . . تنبت في أرض عاملة ، جبلاً ، وتداً ، صـرحاً ممرَّداً ، تُشد إليه الرحال وتعصبُ به الآمال .

ليست غيمة . . إنها نهر حان انبثاقه .

نهر يشاكل أرض الجنوب لوناً وطعمـاً ويضارعهـا وعداً وحلماً وعطراً عنوانها بلال . . . . بلال حارس النهر .

قـد يعتـري النهـر شح ذات نهـار صيفي ، أو نهـار يهودي ، فيضخ بلال من شاطىء الزهراني دماً عذبـاً وأنيقاً . ويفيض النهر ، تربو الأرض ، وتُقعل الكروم ، ويتزامن إيقاع شـاكوش مـع غناء قُبّرة في تول ، مـع أذان الظهـر ، ويقـرع مصـطفى جمـران ـ المـديـر ـ الجـرس . يسبـغ الصـدر وضوءه ، ويرفع بلال الإقامة .

وتصـطف الثياب الـزرقـاء عليهـا بقـع من زيت وشحم

وبقـايـا غبـار وتعب وأمـل ، خلف عبـاءة داكنـة ، وعمـامـة غـامقـة ، وقـد طـويـل كـرمـح ، وعينين خضـراوين كـزهـر الهنـدباء ، وثغـر كأنـه بسمة لا تنتهي . . . وقسمـات حزن دفين ، عميق وأليف .

يعشب المحـراب وتـأتي الفـراشـات تستعيـر ألـوانـاً لألـوانهـا . وتـأتي النحـلات والنمـلات تتعلم دأبـاً ونـظامـاً وعطاء .

وتـأتي المـلائكـة تفـرش أجنحتهـا دربـاً لأبنـاء المحرومين ، ذاهبين الى فصل الكهرباء ، هابطين الى عنبـر الحـدادة ، طـالعين الى صـلاة المغـرب ، وعشـاء بسيط ومحاضرةٍ عن كربلاء وخرمشهر وجبشيت ومعركة .

يا حارس هذا النهر .

يا هذا النهرُ .

يا هذا النبع . . يا نبع هذا النهرِ .

يا صدرُ . . يا عُمُرُ .

يا بداية عُمْرٍ . . يا بداية .

هذه مؤسسة لأحلامك . . . عمت صباحاً يـا حلماً لا ينقضي . .

وهذا مسجد لصلاتك . . حَرَماً يا بن الطيبين .

وهذا مشجب لهمومك وعباءتك . . من طرَّز عبـاءتك بهذا الحب الصوفي؟ .

وهـذا بلال لجنـوبك . . . مـا أبللنـا من حبـك ، مـا ارتوينا بعد ، هل ارتويت؟ .

هذا جنوب بلالك . . . بللنا الندى والحـرية وأتلعت زيتونتنا جيدها . هذه مطرقة خضراء وإزميل أخضر ، وعـامل تقي وفنانٍ مهذب وقبضة محكمة ودعاء كُميل والوحدة وآمـال تنبت على رؤوس أصابعك وتوغل ترتوي من المـدى الأخضر الريّان في عينيك . فاسترح .

إننا يقظون ، أيـدينا على الكتـاب وعلى الإزميل وعلى الزناد وعلى القلم . . غـرس صوتـك وقلبك ومـرامي عينيك ودفاترك والعبارات التي لم تكتبها وهي في انتـظارك . . . يا حارس صحوتنـا . . ولا يستريـح . . . يأتي صبـاحاً يـوقظ التلاميذ من نومهم يأكل ويطاعمهم لبناً وحباً وقرآناً . . يسـأل المعلمين عن قلوبهم . . . يتفقـد شجر **الدفلى** على ضفتي النهر .

أيهـا الحارس ، يـا بـلال ، كنْ يقـظاً . . وإلا غضب النبع .

غريب على طريق الغريب(*)

ما امرع هذا السهل ، ما اصعب هذا السهل .

ما أوقع نبض هذا الجسد ، مـا اشهى هذا الـوعد ومـا اضيق هذا اللحد .

ما افتى هذا الشيخ وما اسن هذا الفتى .

ما أقرب هذا الأبن لأن يكون اباً . . لقد كاد . .

(*) أواخر صيف١٩٩١ـ البلاد عدد ٥١ ـ في تأبين العالم الشاب السيد محمد فضل الله الذي استشهد في حادث الحافلة في تركيا .

ما أقرب هذا الأب لأن يكون ابناً . . وكاد . .

ما اصبر هذا الأب ، «بكى احُدُ لما تحمل أهله» .

ما اطول هذا السفر .

ما اصوب أن يكون هذا المعلم تلميذاً ، اتراه يكون تلميذاً غير المعلم ، أم تراه يكون معلماً غير التلميذ ؟

ما أوجعني أن لا يسبقني محمد إلى هذا المنبر أو يلحقني .

يسبقني فيفتح لي افقاً ، ويلحقني فيجاوزني القاً .

واسمعه ، تسمعونه ، وتقولون ناصحين مشفقين : يا أبا محمد ، احفظ علينا وعليك نجلك الذي نجلت ، لا يفسد على كثير من الجاهلين جهلهم ، وكثير من الفصحاء عيهم ، وكثير من البلغاء ابتذالهم ، وكثير من المغترين فراغهم .

* * *

سمعته ، وكان قد بلغ الحلم لتوه ، وما أن انتهى من تلاواته حتى رأيت ريحان عذاره يطاول صدره ويشتعل بياضاً . بكير على الشيب . بكير على الموت يا صديقي .

وعندما افقت من دهشتي بعد ستة أعوام ، مات غريباً

على الـطريق إلى الغـريب . . . فـأدخلني في دهشـة لم يخرجني منها إلا يقيني بانه وصل إلى حيث قصد ، بقليل من وعثاء السفر ، وعثرات الطريق ، وكثير من الأهلية واللياقة .

أو ليس أكثرنا لياقة بالحياة أكثرنا لياقة للموت ؟

وأكثرنا جدارة بالدنيا أكثرنا جدارة بالآخـرة ؟ لم يخسر محمد إلا قليلاً قليلاً ، وخسرنا به كثيراً كثيراً . . .

لا أراني أعدو ما تسرون وتعلنون ، إذا مـا قلت : باننـا فقـدنا في السيـد محمد المصـداق الأمثل للمفهـوم المرتجى للعـالم ، والذي أخـذنـا نكـونـه اخيـراً ، مضـطرين ، طبقـاً لأطروحة تقوم على الموجب مما في الذاكرة والسالب مما في المشهد . . .

وفي الذاكرة القريبة ، مثالاً لا حصراً ، جـده المقدس السيـد عبـد الـرؤوف فضـل الله ، المـرآة ، التي تختـزل الأمثـولة ، وفي المشهـد كثير من اللسنين الـذين لا يحسنون إعمال حروف الجر .

لعلي أقـرب الصورة إلى الـذهن اكثر ، اذا استـذكرت معكم جبـل عامـل ، أيام استئشـار زراعة التبـغ بالمسـاحـات الأكثر خصوبـة من أرضه ، وأنتشـارها كـالوبـاء ، ومشاكلتهـا للجميـل من الزروع لـونـاً وزهـراً ، ومضـارعتهـا للرديء من السمـوم خبثاً ومـرضاً ، ومقـاربتها للتـرهل والكسـل والفـراغ

والبطالة والعطالة والفوضى والقحط والبوار والجراد ، انتاجاً وجدوى .

لقد كانت الخضرة الدخانية توهمنا بالخصب والجمال والعافية والغنى .

ويوم الحساب ، تنكشف عن شح وتعب وشحوب واملاق .

إلى أن بلغ التبغ أزمته ، كساداً وانكشفنا عن برم به دفين وعميق ، وعدنا إلى الزيتون ، نمطاً اصلياً أصيلاً معاصراً مستقبلياً ، تتنوع عليه وفيه ومعه ، منه وإليه ، المحاصيل وتتكامل ، ويتيح التنوع المحكوم بثقافة ايمانية توحيدية غائية ، مجالات شتى للأبداع ، معالمها ثوابت ومعايير تتأسس على الأصل وتظل بحكم الأصل مفتوحة على المستجد من شؤون المعرفة والحياة .

السيد محمد عبد المهدي فضل الله كان مشروعنا ، والصورة التي رسمناها في وعينا وشوقنا وحلمنا للمثال المرجو ، لأنه كان يعدنا باتساق المتعدد في الواحد ، أو بتعدد المستويات المتناغمة المؤتلفة في الذات الواحدة .

كنت اراه يخرج من القرآن ، مترعاً به ، لغة وايقاعاً ، نظماً وسياقاً ، صورة وظلالاً ، مدلولاً ومؤشراً ، حاملاً منه ما يحمل المحدود الكادح إلى ربه من وصل بالمطلق ، ملامساً

مـا يلامس المتـأله من سـر الألوهـة ، اذ يحاول أن يصـل فلا يصـل ، ويحزن ، وفي آخـر الحزن ، يـدركه الفـرح ، فرح الجوار . . . يجايـل المحال على يقين بـالأستحالـة ، فيبلغ بسعيــه ووعيــه أعلى درجـات الأمكــان ويــرضى ، يقـلق ويطمئن ، يوظف قلقـه لترسيـخ الطمـأنينة . . . ويعـود من حيث أتى ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾

انصافاً ، أو دفعاً للظلم أقول : أن له اترابا انداداً تـأتينا الأخبار بانهم ضمانة أن لا تسيخ الأرض تحت أقدامنـا . . . وتبقى الخسارة كبيرة .

* * *

. . . واولئـك الصفـوة الأطيــاب ، من محمـد إلى رضـوان سويـدان ، هذه النبتـة الطريـة العذبـة ، التي بزغت سراً ، وكادت أن تبرعم سراً ، ولـولا الموت المبكـر لما فـاح عطرها الكثيف . . . إلى مظان الطهر والصفاء الأخرى . . اولئك الذين ماتوا على الطريق بين الماضي والحـاضر ، بين تـركيا المـاضي العثماني ، مـاضينا ، شئنـا أم ابينا ، مـاضينا القــاطع حــاضره مـع مـاضيـه ، الـذاهب إلى حــاضـر الآخرين . . . بين تركيا الماضي وإيران الحاضر ، حاضرنا شئنا أم أبينا ، حاضرنا الطالـع من ماضيـه ، ماضي الآخـرين فيه ، إلى حاضره ، إلى حاضرنا .

هؤلاء الذين ماتوا ، لو كانو غير ما كانوا ، أو قصدوا غير الذي قصدوا ، لو كانوا من أهل النعمة النقمة ، الحرام مصدراً ومصرفاً ، لو كانوا ذاهبين إلى الغرب بدلاً من الغريب إلى الجواري والإماء بدلاً من الإمام ، إلى نزهة حرام على الطائر المشؤوم أو الميمون ، لمزيد من المجون والجنون ، أو لأيداع مسروقاتهم عملة صعبة في مصارف الآخرين ، من يهود ومتهودين . . . وسقطت طائرتهم في البحر ، وهم سُكارى حيارى ، ذاهلون عن الوطن والمواطن ، عن دنيانا وآخرتهم . . . أما كانت تهب النجدات لأنتشال أجسادهم الطرية واستخلاصها من افواه السمك والحيتان ؟ لو كان الوطن مهرباً في حقائبهم المزدوجة أو المتعددة القعر ، حشيشاً وافيوناً ومالاً بذيئاً دميماً ، أما كان الوطن حكماً وحكاماً ، صغاراً صغاراً وكباراً صغاراً ، محسودين وحساداً ، يطيرون إليهم عقولاً وعيوناً ، قلوباً واجساداً ؟

أما هؤلاء الذين يحملون الوطن قيماً بدون حساب . . . أما هؤلاء الذين لا يشترطون على الوطن ، ويشترطون على أنفسهم للوطن ، هؤلاء احتياطي الدم في زمن الحرب ، واحتياطي العرق في زمن السلم ، هؤلاء يموتون غرباء . . .

ابداً ، أنهم ممتلئون حضوراً ، ساطعون «طوبى لهم وحسن مآب» ولأم اعدائهم الهبل .

كان محمد لتوه قد كتب قصيدته الأخيرة وعندما اكتمل نصاب الحضور واشرأبت اعناقهم ، غاب ، ذهب صحبة الموت إلى الحياة يا موت .

«اراك بصيراً بالذين احبهم
يقودك نحو الأكرمين دليل

كوميديا السواد

لسبب ما ، يتصل بطبيعة التطورات الحاصلة والجارية ، تقنيا واجتماعيا وسياسيا ، لم يعد المدى الزمني والنفسي للحدث ، أي حدث يتسع ليصل الحدث ، تصورا أو فعلا ، إلى غايته ونهايته المنطقية . . . ينقطع الحدث انقطاعا ويأتي تاليه في الغالب مغايرا لبدايته ، مما يعطي العلاقة بين الحدث وامتداده طابع المفارقة من هنا ، ربما يرى البعض أن المستقبل في المسرح هو للكوميديا التي تقوم اساسا على المفارقة وعدم التسلسل بين المقدمة وما يليها من قول أو فعل أو حركة . خطورة الكوميديا ، نصا ولعبا وتلقيا ،

أنها تنفيس . غيمة من ضحك يخامرها شيء من فرح مرتجل مرة ، وشيء من حزن سريع الـزوال مرة ، وخليط منهمـا مرة أخـرى . . ولكنهـا تخلو من بخــار الغضب ، الـذي يعيش طـويلا ، ويـذهب بعيدا ، يحفـر في القلب ويدخـل ركنا في الجملة العصبية ويحرض ، يدفع إلى التظاهر أو الأعتصـام أو الأضـراب أو الصـوم أو الكفــاح المسلح أو النضـال السلمي الـــدؤوب ، أو أو أو . . . لتحـريــر الـذات واللغـــة والفن والوطن . . من هنا يبدو أننا كنظارة ، نتجه حثيثاً نحو الصلح وصقيع الحياد ، المـوت ، أو نحو الأنيـة في الأنفعال الـذي ينطفىء في المتعة السهلة . . . نخرج من المسرح ونـدخل في الليل ، في النوم ، في الشخير .

أنــام مــلء عـيــونـي عــن شــواردهــا
ويـسهــر الـخلق جــراهــا ويـخــتـصــم

وفي اليوم التالي ، أو العام التالي ، أو القـرن التالي ، أو الـوطن التالي ، أو الهـزيمة التـالية ، أو الخيـانة التـالية ، نــروي لمن لم يـر ولم يسمـع ، مفـارقـات اليـوم الأول بـــلا دلالات ولا عبر ولا عبرات . .

﴿ وتحسبهم أيقـاظـا وهم رقــود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمــال وكلبهم باسط ذراعيه بـالـوصيـد لـو اطلعت عليهم لــوليت منهم فــرارا ولملئت منهم رعبــا ﴾ ســـورة الكهف .

أمـام التلفـزيـون ، المسـرح ، ننتــظر الصـورة ، لأن الكلام أقل وأدنى تعبيرا ، الكلام مراوغ ، يعد بالنصر فتكون هزيمة ، يحكي عن الصمود وفي الصورة يـظهر الأنهيـار . . إلى الصـورة ، إلى المشـاهــدة والشهـود أيهــا المستمعـون الكرام . . .

في الصــورة : قرن من العلم وطهـارة المولـد والمحتد والذات والذيل واليد واللسان والظاهر والباطن ، أسمـه السيد أبو القاسم الخـوئي ، اسير ، طـوعا أو كـرها ، أتى وحـده أو أتي بـه من النجف الأشرف إلى بغـداد على غير مـألوف منـه ومن اسلافه واسلاف الآخر ـ حتى هولاكو ـ قـرن . . . أمام نصف قرن من الجهل واللغة الهشة ، وبداوة ما قبل البداوة ، البداوة الجديـدة ، البدو قـراط ، التي تجمع سيئـات البداوة إلى اسـوأ ما في الحـداثة ، لا تستبقي من قيم تلك شيئـا ولا تضيف من حسنات هذه شيئـا ولا شكلا ، وتبـدي مزيـدا من العنفـوان أمـام الآخـر . . . حسنـا نحن معـك على مضض منــك . . لأننـا مخلوقــون ضـد الآخــر . . . ولكن هـذا العنفـوان المصـطنــع لا يلبث أن ينكشف عن عفن . . أنـه عنفـوان «محمض» . . . لا يتجسـد ، إلا غــازات وكيميـاء ســامـــة في حلبجـــة والنجف وكــربــلاء ، وأنـكشــافــا ، تعريا ـ ستربتيز ـ في صفوان . . أمام اليانكي ، دون ما يغري من مفاتن وفتن .

وفي الصورة ، أهل العراق ، آل حسن وعشائر ديالي والدليم وربيعة والرميثة والرارنجية وأهل المروة والنخوة والكرم والحمية والأنفة وقتال الأجنبي باللحم العاري . . أهل المضايف . . (لأزمة مرثياتهم الشعبية : «حشا شاربك نوم الوطية») . يقبلون الأيدي والأقدام ويتجمعون يتدافعون ، يتعاركون ، حول شاحنة التموين الأميركية ، يتلقفون منها خبزا ويذهبون وكأنهم وقعوا على كنز . . الله اكبر . ـ أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك وتركك بنات الوحي سبايا يقودهن الجوع من بلد إلى بلد ـ من خطبة السيدة زينب إلى يزيد مع بعض تصرف ـ .

العراق ، بلد السواد ، والسواد في اللغة العربية هو الخضرة ، هو الخصب ، العراق كان البلد العربي الأمثل للخروج من التخلف إلى التقدم بمفهومه الشامل غير الأحادي الجانب ، المادي المسكون بالمعنى ، بملامح نوعية مميزة تاريخا وتراثا وحاضرا ، بشرا وأرضا وماء ونفطا وعقلا وعلما وأدبا وشعرا وفقها ونخوة ومدى وافقا مفتوحا على الغد والأمة . . . أنه الآن مقاطعة من بنغلادش أو أثيوبيا أو الصومال . . أنقول أن له بالبانيا أسوة حسنة أو سيئة ؟ أبداً . . . ولا قياس ولا مبرر ولا داعي ولا سبب إلا الحاكم . . بعض الحكام لهم دور واحد وحيد : أن يقطعوا طريق التاريخ . . أنهم قطاع طرق ليس إلا . . .

وفي الصورة : توقف الحجر ، اصطدم الحجر بلعبة السكود فاصابه السكوت ، سكت الحجر بعدما ملأ الدنيا حركة وكلاما واملا . . تنطفىء الأنتفاضة ، ينطفىء الوهج ، في الداخل الداخل ، على امل ضعيف . . امل بالخارج من الخارج ، ولكن الخارج خرج حتى من الخارج ، راهن على فارس كان هو يعرف عن كثب أنه مجرد بغّال أن أنهزم عض وإذا انتصر لبط ورفس . . ويعود الخارج ليراهن على الداخل ، فهل تعاود الانتفاضة انتفاضها ؟ أني أحب ذلك وأرغب فيه . . ولكن اذا ما كانت الخيبة خيبة بالآخر ، حتى الصديق ، كالسوفيات مثلاـ فيأتي الرد من الداخل ، أما اذا كانت الخيبة منا . . منا ، فمن أين يأتي الرد ؟ ربما كان الرد انتحارا ، هيراكيري . . أو نصحو على مفارقة!!! نتنازل فيها عن فلسطين من أجل فلسطين والأمة العربية ووحدتها وتقدمها!!! نستقيل من فلسطين لندخل في الأمة ؟ . . . نحن الذين مهرناها آمالنا بالغد ومستقبل عقلنا وأولادنا وأجنتنا ؟ . . . يقولون . . تقول الصورة باننا وصلنا . . يا للهول!! الله اكبر . . . ليت السماء تنطبق على الأرض . . ولباطن الأرض أفضل من ظاهرها . . اللهم عفوك . . .

وفي الصورة هذا الحقد العربي ـ غير المقدس ـ العشوائي ، المتفجر على حدود الأقطار والقبائل والأفخاذ ، يجري في كل اتجاه ، كنهر فالت من عقاله . . إلى أين ؟

هـل انتهينا من السـادية إلى المـاسوشيـة ؟ أو من الماسـوشية القطرية إلى السادية القومية ؟ هـل قتلنا الـذئب والضبع حتى نشوي الخراف ؟ .

تـفـرقـت غـنـمـي يـومـا فـقـلـت لـه
يـا رب سـلط عليـهـا الـذئب والـضبـعـا

ختمنـا امثولـة سـايكس بيكـو ، وصلنـا ، فـلا بـد من سايكس بيكو أخرى تعيد أنتاج الماضي ، التجزئة والأنتـداب على ضوء الحاسوب والهمبرغر وماكدونالد!! برنـارد لويس ، السطحي والخبيث ، التقط المفارقة ، التقاطاً يهوديا كأنه يقرأ في سفر الرؤية وينعي الوحدة . . فما العمل ؟

أنا أراهن أن جيلنا سوف ينقرض ، واسأل الله التعجيل في هـذا الأمر ، هـذا باب الامـل ، ومعه ينقـرض نظام القيم الجديد الـذي انتجناه من خـارج السياق مـادة وصيغة حـاكما ومثقفـا تابعـا(جاريـة) ونعود ، ويعـود من بعدنـا إلى نـظامنـا القديم الحديث والمعاصر والأصيل وهذا حـل ، فمن أراد أن يصبر ويصابر ويرابط فليصبر ، ومن اراد فلينافق ، فليبتـذل ، فلينـزل ، ليضع رأسـه بين قدميـه . . وهناك من يـريدون أن يـرووا بـدمـع العين وحبـات الحبـر الأخضـر شجـرة العليق المتبقية في هذه الصحـراء المملوءة شمسا ورمـالا وذكريـات وأشواقا واحلاما . . وبالمضمون عن رسول الله (ص) قال : «ارأيتم يـوم تتـداعى عليكـم الأمم كـتـداعي الآكـلة على

القصعة!!! قالوا : أو من قلة يا رسول الله ؟ قال : أنها كثرة ولكن كغثاء السيل» .

وفي الصورة في الدين ، ومثالي لبنان ، لم تعد المؤسسة مؤسسة ، لا الرسمية ، ولا الأهلية التي كنا نباهي بها . لم تعد مؤسسة ولو خربة . وهي في طريقها لأن تصبح سلة «سلاطعين» كيفما تحركت أو حركت يعض ما فيها أو من فيها بعضهم بعضا . . . يخرجون من القلوب إلى الجيوب ، إلى صفحات الجرائد ، ومن الموعظة إلى الكلام الملتبس ، من الكناية والأستعارة إلى المباشرة الباردة ، من الوجدان والدعاء إلى النكتة ، من الدين اللحمة والسدى إلى الدين التفسيخ والتفكيك ، من الدين الأحتجاج إلى الدين التبرير ، من الدين التكامل والأكتمال إلى الدين المصادرة . . . إلى المفارقة ، إلى الكوميديا . . ومن النمو العلمي والأدبي والأخلاقي الهادىء السري والطويل الأمد البعلي ، إلى النمو السريع في «الغرين هاوس» المحميات ، البيوت الزجاجية ، الخيم البلاستيكية ، من التقوى والتواضع زادا وغذاء إلى هرمون الأعلام وادوية الدعاية والمال والتصنيع حسب الطلب . واكبر ما نخشاه أن يطال التصنيع هذه المرة مقام المرجعية ونظامها ، وإلا فلماذا أدركنا الذعر خشية أن يصاب السيد الخوئي بسوء ؟ وهو قريب من الموت والموت قريب منه كما قال أطال الله عمره!

لأننا بعده سوف نتنازل عن أكثر شروط المرجعية ، ويصبح مرجعنا كمرجع أي قبيلة أو بطن قبيلة متخلفة متعصبة ، لا تقوم مرجعيته على معايير ثابتة ، منتهى الحداثة ، منتهى المفارقة ، منتهى الكوميديا أن ننتج مراجعنا بالدعاية كما تنتج المجتمعات المغلقة وجهاءها وزعماءها السياسيين!!!وبتعدد المراجع ـ ديموقراطيا ـ بتعدد القبائل وشيوخها ؟ هذه المرة ، تمتد سايكس بيكو إلى المجال الديني ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كوميديا ، كوميديا ، والمسرح في الهواء الطلق ـ مسرح الشمس ـ والانكى أن النفاق لم يعد حصريا . . . هذا منافق أو هؤلاء منافقون ، الآن أو غدا أو إلى مدة معينة حتى ترتفع الضرورة ، بل اصبح النفاق اسلوب انتاج وناظما اجتماعيا وفكريا ومنهجا للنخبة ، كل النخب من التجار إلى المثقفين ، كل المثقفين . . . والنخبة لن تلبث أن تعممه على الرعية تطبيقا للمأثور من قول علي (ع) «كما تكونوا يول عليكم»

أما من شهداء ؟ بلى ، ولولاهم لساخت الأرض . . أنهم موجودون يقفون عند نقطة ما ، تحت شجرة أو حائط أو قصيدة ولن يلبثوا أن يعيدوا الرواية إلى سياقها ومنطقها . . يمسكون بالسقف حتى لا يسقط فوق رأسنا ، يؤجلون

سقوطه . . . ريثما يستعيد البيت العربي أعمدته وجدرانه ، أرضه ، وسقفه وأبوابه ونوافذه المشرعة على الغد .

شتاء١٩٩١

وتبقى السفير سفيراً (*)

وصلتني أسئلة السفير معنونـة بـإسمي ، فـاستغـربت الأمر ، ثم عرفت ان ذلـك كان تبـرعاً من مـراسل السفيـر في منـطقة النبـطيـة ، وهـو قـريب لي أحب أن يعتبـرني فـاعليـة سياسية أسوة بغيري ممن لا يـراهم هو أكثـر لياقـة مني للشأن السيـاسي ، أنا لا أشـاركه هـذا الرأي . وأبـدي ارتياحي لأن

(*) وجهت السفير أسئلة إلى عدد من اختارتهم بمناسبة ذكرى تأسيسها وكانت تفترض في تساؤلاتها ان البلد ذلك العام قادم على سلام وانتخاب رئيس للجمهورية .

أهل السفير يحبونني ويحرصون علي تجنيبي متاعب البحث في مستقبل البلد ، لبنان ، وان كان البحث في مستقبل بلدتي جبشيت لا يقل صعوبة عن البحث في مستقبل الوطن .

* * *

ان أهل السفير فيما أعلم ، على قلة العلم ، أكثرهم أدباء ، يتعاطون الشعر والرواية والمسرحية والحكايا ، كتابة أو قراءة أو نقداً ، أو تذوقاً ان لم يتيسر غيره . وبعضهم كانت بداياتهم روائية وهذا ما تشير إليه من قريب أكثرية الافتتاحيات . وأكثرهم ـ عدا القسم الثقافي ـ عندما يكتبون سياسة أو اقتصاداً ، يقعون عن غير قصد أو سوء نية ، في تكنيك الرواية وأتون الشعر ، يذهبون بعيداً في اللغة ، ويعطون لأنفسهم فرصة أو فرصاً لتمرير الصور الشعرية ، يسقطون عليها بعض مكنوناتهم وكثيرا من إحباطات القراء ، فينعم القارىء بقليل أو كثير من الوهج ويتواصل مع النص ألقاً وتداعياً وغضباً وحباً وحواراً على حافة الذات أو الوعي .

والذي تلك حاله ، اذا ما حاول قراءة الواقع اللبناني ورصد مسار تطوره ، ومؤشراته وانعطافاته المحتملة دائماً والمفاجئة أو المزعجة دائماً ، وآليات حركته الداخلية التي تكف عن العمل لأدنى حدث يحدث في الخارج ، أي

خارج . . إذا ما حاول ذلك فانه يلقي بنفسه في سياق درامي يذهب في خط بياني محدد الوتيرة والاتجاه يغري قارئه بالظن او اليقين بنهاية منطقية للحدث الجاري أو الرواية .

ثم ، في لحظة ما ، يفرقع السياق ، يهجم عليه حدث يبدو وكأنه آت من غيب وبدون أسباب ، يجره عنوة الى مجرى ميلودرامي مثير ، يقطع النفس والذاكرة ، والأشواق والاحتمالات والتوقعات لتبدأ معه الرواية من جديد ، وباتجاه معاكس لكل الحسابات المنطقية ، وتأخذ العقدة تولد من العقدة لتمسي الرواية من بعد مجموعة بدايات تعقبها نهايات لا تبدأ إلا لتنتهي أو لا تبدأ ولا تنتهي .

***

أحاول أن أبسّط المسألة :

من حكايا ضيعتنا وضيعة كل من القراء والكتّاب ، ان يجتمع أولاد الحارة صباحات وأصائل الربيع أو الصيف للعب ، يقتطعون من الحقل الكبير قطعة بحجم أحلامهم أو إمكانياتهم الإدارية ، يصونونها بالحجارة ، ويتفقون على اعتبارها بلداً أو ضيعة أو حياً من ضيعة أو وطناً ، وينقسمون عائلات ، وتنهمك كل عائلة ببناء بيتها بالحجارة الصغيرة ، وأثناء العمل تحصل مشادات بين عائلة وأخرى ، لا تلبث أن تحل لأن هناك إصراراً على البناء واللّعب ، وفي لحظة تكون

المداميك قد ارتفعت ولم يبق الا السقف بأعواد الذرة وأغصان الزنزلخت والفرش بأوراق التين ، فتطل والدة أحدهم أو بعضهم من على الشرفة لتنشر غسيلها ، وعندما تراها الجارة أم أحدهم أو بعضهم تشيح بوجهها وتغادر شرفة منزلها الى الداخل وتصفق الباب وراءها ، ويغلي الغضب في صدر الام الأولى فتنادي أولادها ، تقرعهم بشدة مذكرة بأنها نبهتهم ان لا يلعبوا مع أولاد الجيران ، وتأمرهم بتهديم ما بنوا وطرد أولاد الجيران من الحقل والعودة سريعاً الى البيت ليأكلوا حلاوة ويلعبوا في الداخل وبعد يومين تشاهد الأم الأولى والثانية تتجاذبان أطراف الحديث همساً على قهوة الصباح قبالة الشمس في الفسحة الخضراء بين البيتين ، فيعتبر أولادهما ان المياه قد عادت الى مجاريها ويعودون الى بناء بيوتهم في الحقل ، وما ان يقطعوا مرحلة حتى تنتهي الجلسة بين الأمين ، وتنصرف كل منهما الى منزلها ، تنادي أولادها وتعاتبهم غاضبة على العودة الى اللعب مع أولاد الجيران ، ويتعجب الأولاد ، يقولون لأمهم انها كانت متصالحة متفاهمة ومنسجمة مع الجارة ، وتؤكد الأم بغضب: هذا ليس صحيحاً ، ولو كان صحيحاً فانه صحيح لوقت ما ولغاية ما ، وإذا كان صحيحاً فهو صحيح بالنسبة لي وليس معناه ان تأخذوا حريتكم وراحتكم في البناء واللعب . . . وثانية تتبعثر حجارة البيوت الصغيرة وأحلام الصغار ، ولا

يبقى لهم الا ان تموت أمهاتهم ليلعبوا ، أو يكبروا ليبنوا بيوتاً حسب مشيئتهم ولكن حدود المشيئة تكون قد ضاقت ، فيبني كل منهم بيته وحده وله وحده ويمنع أولاده من اللعب في الحقل مع أولاد الجيران وإذا ما لعبوا أنهى فرحتهم بقرار .

ربما يرغب أهل السفير ، كما صرحوا أكثر من مرة بوجود شهود عدول ، في اعتباري واحداً منهم ، كان هذا يرضيني الى ان تفاقم غضب حازم صاغية وفار حبره كما يفور التنور فأخذت أحسب لذلك ألف حساب ، ومن يعتبره أهل السفير واحداً منهم ، فهو شريكهم في الغرم لا في الغنم ، على قلة الغنم وكثرة الغرم في هذه المهنة ـ الكتابة أو الصحافة ـ وفي هذا البلد خصوصاً ، وان كان أهل السفير يمنون أنفسهم بغنم في نهاية المطاف فإنهم واهمون ، وإذا أصروا فليستقيلوا وليطمئنوا الى ان المطاف لن ينتهي واذا ما استقالوا فلن تحدث الكارثة .

أيها الأخوة : ان الأحداث والرجال والأيام في لبنان متشابهة بل ومتطابقة حتى السأم .

***

معذرة . . اني أود أن أشارككم ما يبدو أنكم تحبون أن تعتبروه حلماً ، ولكنكم تخافون ان تنفجر سيارة ملغومة في مكان ما من لبنان ، أو يحدث حدث خارجي ، كأن

يمـوت رئيس أو ملك أو وزيـر أو تسقط وزارة في بلد مـا ، ليتحـول الحلم بعده بلحـظات الى وهم أو كابـوس ويتحـول الحالم الى مذهول نادم يهذي .

مـا رأيكم أن ننتـظر أن تنضـج الحجـارة؟ هـذه المـرة تستحق « طبخـة البحص » أن ينتـظرهـا من أفسـدهم الأكـل الجـاهز (الهمبـرغر الأميـركي والكافيـار الـروسي والفـلافـل المتعددة الجنسيات) .

* * *

لو تسمحون لي أن أعود بذاكرتي السفيريـة الى الحالـة التي كانت فيها السفيـر نموذجـاً للحلم الذي قتلنـاه وهو الآن يقتلنـا كنت أعـطي أوراقي الى مصـطفى الحسيني اليسـاري جـداً جداً ، وأتخيـل أثناء قـراءته لهـا سخونـة الجدل الـذي سـوف يعقب القـراءة ، بيني وبينـه ، وينتهي مصـطفى من القـراءة ، يقف ينادي سكـرتير التحـرير التنفيـذي ويقـول لـه آمراً : أجّل الموضوع الفلاني في صفحة الـرأي وضع مكـانه هذه الأوراق . . . الاسلامية جداً جداً ، والتي غالبـاً ماكـان محتواها مشـروع نقض لمسألـة في اليسار فكـراً أو سياسـة ، ويـطلب لي شايـاً ثقيلاً في « كبـايـة » عجميـة ، ثم يضحـك وأضحك وأحكي له عن «الشريف الرضي» الذي كان مـا كان في اعتداده بنفسه وعلمه وأدبه وموقعه ودينه وتقواه . وانه رثى

صديقه الحميم أبا إسحاق الصابي - الكافر - بقصيدة طويلة ما زالت حتى الآن تقطر دمعاً وتسيل حسرة وحزناً ومطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد
أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وتبقى السفير سفيراً لا تشترط على من تحبه أن يحبها ولا يشترط عليها من يحبها ان يتفق معها . . كالشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي .

السفير ٢٩/٣/١٩٨٨

قراءات

قراءة في دفتر السيد ميم الذي ولد عام الاستقلال ولم يزل حيا يرزق

بالعودة إلى دفتر السيد ميم وجدنا أنه قضى نيفا وأربعين عاما من عمره لا يلوي على شيء ولا شيء يلوي عليه . يركض نهاراً من اعلى الصفحة إلى اسفلها ومن اسفلها إلى أعلاها ويفترش الهامش مع غياب الشمس وينام حتى خيوط الفجر الأولى ويحاول أن يمسك بخيط واحد منها فلا يفلح .

فكر السيد ميم أن يخون وطنه ، فوجد أن المسألة في

منتهى السهولة ، فعاد إلى رأس السطر الأول من الصفحة الأخيرة وتقوقع في توقيعه ، وعندما سقطت يده في جيبه صدفة ، كانت عربة من طراز اشتراكي بائد تمر بطيئة على ظهر عامل النفايات ، تأكد أن جيبه فارغة تماما وأنه لا يملك قطعة وطن ليبيعها أو يبادلها بعربة فاخرة من طراز الماني غربي ، فاكتفى بطبق من حساء العدس خال من اللحم وشرع يكتب شعرا . بعد أن حبر نصف صفحة من القطع الوسط تذكر أنه لا يعرف العروض وقد بلغ من العمر ما لم يعد يسمح له باعادة بناء سليقته ، وأنه ليس في حالة فرح ولا في حالة حزن ، أنه في حالة ما لا يعرف ماذا يسميها ؟ وترسخت قناعته بان الفراش وحده هو المكان المناسب للاحلام ، فابتلع ريقه على مضض ومضى لشأنه ، أنه شأنه وكفى .

يرجو السيد ميم من جميع الأهل والأصحاب والرفاق القدامى الذين يتصيدون عيوبه أن لا يفكروا في شأنه ، وأن ينصرفوا كليا إلى التفكير في أمر معاشهم ومستقبل أولادهم وبناتهم وآخرتهم بعد حل جميع الميليشيات وبلوغ بيروت سن التكليف الشرعي في عيد الأستقلال . . . ليترك جميع معارف السيد التفكير في مستقبل البلد ، ليتركوا البلد . . . «ووالد وما ولد» أن لم يتركوا هذا البلد فسوف يتركهم هذا البلد ويبحث له عن بيت له سور ﴿ **ورفعنا عنك**

غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

***

يضع السيد ميمْ نظارتيه على عينيه فيرى دخانا .

يدني النظارتين على ارنبة انفه وهو يظن أن الأرنبة مؤنث أرنب كما أن الدولة مؤنث الوطن ، وينسى لماذا ادنى نظارتيه . فيعيد واحدة إلى مكانها ويبقى هو في مكانه ولا يعرف من أين يأتي الدخان ؟ كل ما يعرفه هو أنه لم يبق احد في مكانه إلا الذين كانوا في الدرك الأسفل ، تسلقوا مرارا ولكن الحائط كان عاليا وعاريا فسقطوا ثم جاء السلام فاستسلموا . وعندما رآهم السيد ميم بأم عينيه يتضورون جوعا ، شد الحجر على بطنه وأعطاهم حجارة ، وعاد إلى دفتره لا يلوي على شيء ولا يلوي عليه شيء . وقرر السيد ميم أن لا يخرج ثانية من الدفتر إلا عندما ينزل المطر .

وعندما شاهد المطر صاعدا والعشب نازلا صاح بأعلى صوته ويديه : سقط النظام ، سقط النظام . . . سقط النظام على النظام . . . واستعد ليأخذ مكانه في النظام الجديد ، فاكتشف أن الدفتر مقلوب ، أسفله إلى **أعلا** وأعلاه إلى اسفل ، يمينه إلى اليسار ويساره إلى اليمين ووسطه مفسوخ إلى شقين . . . **﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة ،**

فك رقبة ﴾ .

تمدد فوق الهامش كاسف البال . . ارخى قميصه فوق حزامه ، واطمأن إلى وضع الحجر على بطنه ، ونام على رؤوس اصابعه .

يا ميم يا ميم**﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾** .

***

عندما توقف السيد ميم عند الحاجز الأخير رأى بندقية أخيرة .

ولم يعرف ما اذا كان المكان هو أول الدنيا أو آخرها . ولكنه توقف ولو لم يتوقف لكان توقف ولكنه توقف ، ولما توقف سأله صاحب البندقية عما اذا كان يملك بنادق أو كان له أسم ما أو بلد ما ؟ فأصغى إلى سؤاله بكل ثيابه واجابه بان له قلبا واحدا وأنه منذ ولدته أمه عاريا كشجرة لوز في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاي نوفمبر ، لم يغير مكان قلبه ولم يسمح لأحد أن يغيره ولن يسمح حتى لو اعطي الف دولار امريكي أو آسيوي .

ضحك الرجل الصغير الذي نبتت لحيته قبل أوانها بثلاث سنوات ولا يزيد طوله عن طول بندقيته كثيرا والذي لو تزوج غدا على سبيل الصدفة فانه لن يعود إلى منزله باكرا واذا جاءه ولد بعد تسعة أشهر فلن يعرف كيف وأين يقبله ؟

ولماذا ؟ ولن يجد مالا ليأتي له بعلبة حليب كلما جاع ، رغم أن والده استشهد من اجل تحرير الأرض والأنسان بعد اتفاق السابع عشر من أيار ، ضحك الرجل المشروع وضحكت بندقيته فسرت عدوى الضحك إلى السيد ميم فوجد نفسه بدون تفكير يترجل عن قدميه ويقف أمام البندقية كاشفا لها عن الجانب الأيمن من صدره .

استشاطت البندقية غضبا لأنه ما زال في هذا البلد بشر لا يعرفون مكان قلوبهم ـ عالم متخلف ـ قالت البندقية وهدأ الرجل صاحبها من روعها فأشارت إلى ميم أن يمضي فمضى إلى هامش دفتره مباشرة ونام على رأسه ، رأسه هو لا رأس الدفتر . **﴿ وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا انت سبحانك أني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾** .

***

ابتاع السيد ميم قلما وقارورة حبر ازرق ، بعدما رأى الطقس معتدلا مشمسا والحملات الأعلامية متوقفة ، وتمنى على صاحب الدكان أن يقيد الثمن ديناً عليه حتى بداية المعركة القادمة ، فضحك صاحب الدكان وقال له : ولو يا سيد ميم! اعتبرها هدية مني لك ، وتمنى صاحب الدكان في نفسه أن لا يظن السيد ميم بان صاحب الدكان قد فكر بانه لن

تحدث المعركة مما يجعل السيد ميم يرى أن البندقية لم تعد ذات منفعة فيأتي إليه بها بدلا من ثمن القلم والمحبرة ، ولم يظن السيد ميم بذلك ، ولم يكن صاحب الدكان يعلم أو يفهم بأن من يشتري قلما وحبرا لا يقتني بندقية ، لأنه يخشى أن تنطلق رصاصة من القلم خطأ أو صوابا ليلا أو نهاراً فيأتي رجال الأمن ويكتشفون البندقية فيصادرون القلم ويأخذون السيد ميم إلى السجن ويعلمونه القراءة والكتابة .

مضى السيد ميم فرحا بالقلم والحبر الأزرق وقرر أن يكتب رواية على غرار رواية همنغواي «لمن تقرع الأجراس» ولكنه متأخراً تذكر اسم الروائي والرواية . حاول أن يتذكر احدا . . . تذكر السياب وانشودة المطر وغريب على الخليج وقوله : «شباك وفيقة في القرية ، نشوان يطل على الساحة ، كجليل تنتظر المشية ، ويسوع وينشر الواحه» وقوله : «الشمس اجمل في بلادي من سواها والظلام ، حتى الظلام ، هناك اجمل فهو يحتضن العراق» .

ولكن السيد ميم لم يعاشر النخيل ولم يعاقر التمر والرطب ولا يحسن العروض . . . فتذكر بابلو نيرودا ، ولكنه لم يتعلم الأسبانية ، زهده فيها الأب كاميليو توريز عندما مات بعدما خدعه وخدع نفسه ، لو أنه صبر حتى صدور البيريسترويكا لما حدث ما حدث ، وعاد السيد ميم

إلى ذوقه العربي فتذكر صلاح عبد الصبور وقوله : «يا اخوتي النوام ما احلى الكرى وسذاجة الفكر» .

ومن اصابع صلاح تسلل امل دنقل فتذكر قامته الفارعة ونحافته وجوعه والسرطان الذي صرعه والزير وكليب وأدهم الشرقاوي وزرقاء اليمامة وقول امل : «عندما تهبطين على ساحة القوم لاتبدأي بالسلام .

فهم الآن يقتسمون صغارك فوق صحاف الطعام .
بعد أن اشعلوا النار في العش والقش والسنبلة .
وغدا يذبحونك بحثا عن الكنز في الحوصلة» .

السيد ميم يصر على كتابة الشعر ولا يكتب الشعر ولا يعترف بقصيدة النثر ولا يؤيد انسي الحاج ويتعاطف كثيرا مع احزان الماغوط ويختلف معه على تنفيذها ويقف اسم بول شاوول حائلا بينه وبين قراءة آثاره ويحب شعراء الجنوب كحبه لأخوته وأعمامه وأخواله ، ويتكدر من نرجسية أكثرهم وأن كان يعتبرها مصدرا وحيدا ـ ربما ـ لشعرهم فيرضى بحكم الضرورة ويسكت .

كانت خيوط الفجر تخرج من علبة الليل . . . وصلته وصلة من تلاوة الفجر﴿ **ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ . نهض يتمشى على هامش الهامش فتعثر بالمحبرة فاندلق الحبر على وجه اللحاف الأبيض فاربد

وجه أمه وابتدأت المعركة ، فقضى يومه ساهرا على ظهره تارة وعلى بطنه أخرى ، على وطنه طورا وعلى اولاده طورا .

* * *

في اليوم الثامن من الأسبوع الخامس من الشهر الثالث عشر من سنة الحرب والسلام والحرب بلا سلام والسلام بلا حرب والسلام بلا سلام والحرب بلا حرب والحرب مع الحرب خرج السيد ميم من دفتره ، قرر أن ينهي هواجسه بموعظة تصلح خطابا تأبينيا في مأتم رجل طيب ، فرأى المطر ينزل من السماء والعشب يطلع من الأرض ، والشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب والقمر يتبعها مرة وتتبعه مرة حتى اذا تسامتا عم الظلام ليلا ونهاراً .

ووجد ناسا كثيرين يروحون ويجيئون ، يركضون وراء الخبز يتبعونه كظله كما كانوا منذ عهد بعيد ،قبل الأستقلال وبعده ، وبعد بعده ، ووجد ناسا قليلين يركض الخبز وراءهم يتبعهم كظلهم كما كانوا منذ عهد بعيد قبل الأنتداب وبعده وقبل الأستقلال وبعده وبعد الأستقلال وبعد بعده .

أعلن السيد ميم أنه سوف يعترض على كل شيء ما عدا الشمس والقمر وحركتهما وقرر أن يركض وراء الوطن ويتبعه كظله ، وأن يصبح اسيره ولن يسمح بحال للوطن أن يركض وراءه ويتبعه كظله حتى لو طلب الوطن منه

ذلـك . . . لأن الوطن أيهـا الوطن يكـون متبوعـا لا تابعـا ، آسراً لا آسيرا ، مقيلا لا ظلا .

عنـدما عـاد السيد ميم إلى دفتـره وجـده مكتنـزا شعـرا وحكايا ، تمـدد على فراشـه ، نام على جـانبه الأيمن سـاعة وعلى الأيسر ساعة ، وقضى ما تبقى من ليله نائما على ظهـره ووجهه إلى اعلى والدفتر فوق رأسه .

﴿ يا أيتها النفس المـطمئنة ارجعي إلى ربـك راضية مـرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾

السفير١٥/١/١٩٩١

قراءة في دفتر السيد ميم

مقدمة محايدة : لأول مرة على شرفة مفصل ، على قيد باع من متحول ، قرر السيد ميم أن يختزل المدى الحيوي لوجدانه ، لملم على قلبه اطراف بيته واسرته واقام من شفتيه عيونا على لسانه ، ونوى أن يتوخى الدقة في حساباته على غير عادته ، وسبحان مقلب القلوب! وغدا أو بعد غد ، اذا ما انجلى الغبار عن ذهب فلن يعدم السيد ميم فرصة لأصطناع الفرح وللكسب ، واذا ما كان قد تعود أن يكون خاسراً مع الرابحين فلربما استطاع هذه المرة أن يكون رابحاً مع الخاسرين وما ذلك على الله بعزيز ، والسيد ميم

تعلم كثيراً من شطارات مؤمني ما بعد الفتح ومن خيبات مؤمني ما قبل الفتح ـ اولاد السيد ميم يشكون في مصداقية كلامه هذا ويراهنون على أنه لن يستطيع إلى ذلك سبيلا ـ وغدا أو بعد غد ـ يتابع السيد ميم ـ اذا ما انجلى الغبار عن غبار فلن يعدم فرصة في الأختباء وراء حجر عربي في خرابة عربية أو التشبث بشتلة تبغ أو شجرة دفلى على ضفة نهر عربي ينضب صيفا ولكنه يتدفق شتاء ، ينحسر في الهزيمة ويفيض على موعد نصر آخر أو هزيمة أخرى وأخرى وأخرى . . . ويبقى مفتوحا على غده موصولا بامسه موجوعاً موعوداً واعداً متعامداً .

ولاول مرة ـ يقول السيد ـ ميم ـ يطاوعني لساني فيقتصد .

يقول السيد ميم :

في اليوم الخامس للحرب استيقظت مبكراً ، لأحظت أن الزمن يعاني اضطراباً معويا وارتفاعاً طفيفاً في الحرارة ، ويسير في اتجاهين ، إلى الإمام مرة وإلى الوراء مرة ، حتى خيل إلى أنه بعد اسابيع ربما اصبح التاريخ كله يوما واحداً فارغاً من الزمان أو مكتظاً بالزمان .

غسلت وجهي بالماء البارد والصابون ، لذت لي برودة الماء وتساءلت في سري : ماذا لو أوقدنا فحما أو حطباً

للتدفئة في تموز القادم ؟ وحده السياب قد يعترض لأن في ذلك اجحافا في حق غلغاش (تموز) .

أما أنا- يقول السيد ميم - فقد وجدت ذلك منطقياً وممكناً ، خاصة وأن الرفيق قرمط يقضي لبانات فؤاده المعنى **في غدراس ويعرج في طريق العودة على قبر طانيوس شاهين لقراءة الفاتحة .**

واضح أن السيد ميم هنا يريد أن يتكلم عن سوريالية سياسية . .

ويقول : دائماً كانت هذه السوريالية قائمة قاعدة في تاريخنا الحديث ، وأن لم ترتق يوما إلى مصاف الأنتاج الأدبي . ربما يكون ذلك قد حصل في فنون أخرن كالرقص مثلاً ، ولكن السيد ميم غير مؤهل للحكم في هذا المجال ، مجال الرقص التعبيري أو الأستعراضي أو السياسي أو الصوفي أو الفكري أو الأدبي أو الصحافي أو هز البطن أو الدبكة أو الباليه . السيد ميم يحاول الآن أن يجترح هذا الأرتقاء أو يرتكبه ، واختيار الرفيق قرمط مثالا لا حصرا ، سببه مركب ضعف نفسي وجسدي لدى السيد ميم ليس إلا . . فهو يختاره لأنه أقل المصاديق خطرا ، إلا اذا عاد الجيش الأحمر وقلب الموازين . . وهذا مديح للرفيق قرمط على غير قصد من السيد ميم . . ولربما اعتبره الرفيق قرمط

تجريحا ، هذا شأنه ، فاذا اعتبره كذلك فالسيد ميم يوافق ويعتذر ، وأن لم يقبل السيد قرمط عذر الرفيق ميم يكون السيد ميم معذوراً في قول ما لا يقال ، وليكن ما يكون ، فالسيد ميم عدل من نظرته إلى علاقته **بالتاريخ** ، لم يعد على قناعته الكاملة بأن التاريخ يتوقف عليه أو أنه يتوقف على التاريخ ، فليذهب كل منا بحاله إلى حاله وكفى !!!

تناول السيد ميم كأساً من الشاي الساخن صباح اليوم الخامس للحرب الثالثة واستمع إلى نشرة اخبار ، فبلغت يقظته ذروتها ورأى فيما يرى النائم مهرة حبلى . . رأى فيما يرى النائم امرأة ترمي نهديها للماء وتقول : فليتقدم من يخطب امرأة الحرب فيخرج الدلفين رأسه من الماء ويقول : يا واقفة عند حدود الليل انتظري جيلا آخر ينجب منك النصر الموعود .

ورأى فيما يرى النائم البابا أوربان الثاني يعتلي منبر الحسينية في قرية جبشيت مؤنبا الشيخ راغب حرب في ذكراه التي توافق السابع عشر من شهر شباط الآتي ـ قد لا يأتي ـ وقد يأتي ولا يأتي الشيخ راغب ـ وقد يأتي الشيخ راغب ويرى ما نحن فيه فيعود ادراجه من حيث أتى ـ وقد يعود من حيث أتى فلا يجد في انتظاره أحدا من الشهداء لأنه تقرر نقلهم من الجنة إلى النار نظراً لأرتفاع أسعار النفط مما

جعل الجنة بدون تدفئة أو لأن المعايير قد انقلبت .

قال رسول الله «ص» مخاطبا أهل زمانه «ارأيتم اذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال ويكون أعظم . . . ارأيتم اذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : ويكون أعظم . . ارأيتم اذا اصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً ؟ . . . » .

لقد اثار البابا اوربان الثاني انتباهي وفضولي وحفيظتي وغضبي ودهشتي وذاكرتي ومخاوفي وقرفي واعجابي وتعجبي وشكوكي وظنوني عندما استشاط غضباً وهو يحدق إلى يزيد بن معاوية ويتوعده على فعلته الشنيعة بغزو المدينة المنورة واباحتها لجيشه وهدم الكعبة بالمنجانيق ، ويزيد غارق في الضحك يراقب قرده «ميمون» وهو يبول في جيب سترة زياد بن ابيه ، في حين كان الحجاج بن يوسف غارقاً في نومه وشخيره يعلو ويعلو فاستحسن خالد بن عبد الله القسري أن يكشف عن عورة الحجاج فاماط عنها اللثام والحجاج مسترسل في نومه وشخيره وخطابه .

انهى البابا اوربان خطبته ثم التفت إلى صورة نور الدين محمود المعلقة فوق المنبر وخاطبه قائلاً : الآن انتهت الحروب الصليبية ، لقد استعجل الجنرال اللنبي كثيراً وأخطأ

في مخاطبة صلاح الدين . . ترجل نور الدين من صورته فصعد إليها«شاور» بين تصفيق الحضور وتهليلهم .

لقد ذهبت كثيراً في منامي . . فلاقف عند حد . . ها انذا واقف فمن يحركني ؟

سابقى واقفا ما لم يدفعني احد إلى الوراء أو الأمام أو اليمين أو اليسار . . فإذا ما دفعني احد فسوف اعود إلى يقظتي واخلاط احلامي واقف على رأسي .

واصرخ مع المعتمد بن عباد : «لأن اكون راعي ابل يوسف بن تاشفين خير لي من أن اكون راعيا لخنازير الأذفونش» .

في اليوم الخامس للحرب ، كانت بطاريات الباتريوت قد وصلت إلى أرضنا أو أرضهم أو الأرض المحتلة ، وكنت عائداً من النبطية إلى بيروت التي احبها لأسباب منها أن فيها سيارات تعيدني إلى النبطية . واذا ما احترق النفط أو ارتفعت اسعاره كثيراً فان هذا الجدل وهذه السيرورة سوف تتعطل . . كنت ممتلئاً فرحا بمطر غزير طال انتظاره وتأخر عن موعده كثيراً فتأخر معه العلت والعكوب والزعتر والشومر . . ولكنه وصل . . تصورت أن الأرض من غدها سوف تتحرر من عطشها واعدائها وتعود حرة وخضراء . . وسائق السيارة ـ سيارة الأجرة ـ كان متقدماً في السن وهادئاً

فقد زوج جميع اولاده وبناته فاذا مات كيميائياً أو طبيعياً أو جرثوميا أو نفسيا أو نوويا أو روحياً أو وطنياً أو جوعاً أو قومياً أو برداً أو صبراً أو مللاً أو يأساً ، فانه سوف يموت مطمئناً . . كان يغبطني وأنا احسده . كأنه ، حسبما توحي عيناه ، يعرفني ويفهمني ، وهو سعيد لتواضعي بركوبي إلى جانبه في سيارة اجرة . . ويريد أن يطمئن إلى نهاية الحرب كيف تكون ؟ نصراً ما . . لأحد ما . . ليفرح أو هزيمة ما . . لاحد ما فيحزن . . . ؟ وللسيد ميم صديق يريدها نصراً ما ليتدبر أمره مع المنتصر أو هزيمة ما ليتدبر أمره مع المنتصر أيضاً . . والاثنان سائق السيارة وصديق السيد ميم حائران ، مع أن فرقاً شاسعاً يقوم بين حيرة كل منهما وحيرة الأخر .

قال سائق السيارة في أول الطريق موجهاً كلامه الى السيد ميم : عشرون دولة على دولة واحدة ؟

قلت : اشم رائحة بنزين في السيارة ، هل ملأت خزانها لتوك ؟

قال : لا ، ، ملأتها بالأمس .

في آخر الطريق قال السائق : حتى الآن العراق صامد ولكن الحرب صعبة . . !

قلت له : سلمت يداك . . هنا من فضلك . .

تــرجلت ومشيت ـ لم يصـدقني . . أنــا صــدقت نفسي ، وبذلت جهداً لتصـدق زوجتي ، وفي النهايـة صدقتني وهـذا اعتبـره انتصـاراً كبيـراً ، لأنهـا منـذ عشـرين سنــة تصـدقني وينكشف العكس ، فـرحت كثيراً لأنهـا لم تتب عن تصديقي ممـا يعني أنني مؤهل لمستقبـل شخصي مرمـوق على تقديـر النصر كما على تقدير الهـزيمة ، والحمـد لله الذي لا يحمـد على مكروه سواه .

العواصف ١٥/٢/١٩٩١

قراءة في دم وحليب ووطن

أو أنت معتوه ؟ معتوه! ـ دمي . . . دمي هو المعتوه . . اعياني دمي ، لا يتكيف ، لا يتأقلم ، لا يحسب ، لا يجامل . . . يفور ، يفور دمي ، يبحث عن مكان مرتفع في الوطن الممتد الممدد من إلى ، ولا يجد . . . يعود إلى خائباً كاسفاً متوتراً ، يبحث عن مكان هش في جلدي ليخرج ، لا يخرج ، يتجمع في مآقي ، يهبط إلى اناملي ورؤوس اصابعي ، يسيل كلاما ، كلاما قاتلاً . . . ويخاف علي ومني كل العارفين ببواطن الأمور ، كل المنجمين الذين يرون بعيدا ، بعيداً ، إلى مرمى حجر أو

ظن ، بعيدا من الخليج إلى النشيج ، من المالوين إلى ملوية سامراء ، من خليج تونكين إلى خليج الخنازير ، ومن نهر دانوب إلى نهر دجلة والدجيل . . . ولا يرون قريباً إلى قلوبهم إلى ما تحت جلودهم . . . يخافون علي من دمي ولساني « . . . احببنا كلماته ، أكثر مما احببناه ، فتركناه يموت لكي تبقى الكلمات» .

ـ دمك الموتور لعله دم حرام .

ـ كان حلالا وكان سائغاً ، عذبا فراتا ، صار حراما ملحاً أُجاجاً . . . ولا يد لي ولا ضلع «والموصوف بالسيئة ، الواصف لك بها ، الذاكر لك بالسوء ، ان بقي على حاله حتى اذا احتضر ، وشاهد امارات العذاب ، وعاين وحشة هيئات السيئات ، تمنى الرجوع ، واظهر الندامة» . ابن عربي .

ـ الا ترى للدم الحديث أصلاً في تراث الحليب البلدي ؟

ـ ولدتني أمي ، ذات حصاد من ذات صيف من ذات عام ، بطلقة واحدة ، وماتت بطلقة واحدة ، كانت الأولى واعية والثانية طائشة ، وربما كان العكس اصح ، مع حبي لأمي ولكنها استراحت . . . تنفست ثلاثة أيام بلياليها ، وصباح اليوم الرابع (دغشة باللبناني ، وغبشة بالعراقي) مع

نجمة الصبح ، أتتها أمها وقالت لها : قومي يا بنتي يا مسكينتي ووحيدتي وجميلتي إلى حقلك ، حقل زوجك الذي صار نصفه الجنوبي مهراً لك ، قومي لئلا تعيرك نسوان الضيعة غداً ، ويوغرن صدر حماتك ، فتقول حماتك لزوجك : أرايت يا ولدي لو كنت تزوجت بنت خالك التي لم تذهب إلى المدرسة العصرية ، لما ظلت سنابل قمحك مشرعة مباحة للريح والعصافيرمرتعا للثعالب ومثابة لبنات آوى . . . خافت أمي أن يطلقها أبي أو أمه أو أخته

وكانت زهيدة المهر على أساس أن أفضل النساء أخفهن مهوراً ، وهذا يجعل الزواج يسيراً ويسهم في حل مشكلات الحروب الداخلية والخارجية والديون الداخلية والخارجية كذلك ، ولكنه مع استمرار التخلف والتبعية واستيراد العلاقات والأزمات من الغرب يجعل الطلاق أكثر يسراً . . . اذن يجب أن يرتفع المهر مرحلياً ، حتى نستعيد وعينا ، وبعد ذلك نفعل ما نشاء . . . «يا مولاي ، في عصر ملتاث قاس وضنين/ لن يصنع ربي خارقة أو معجزة كي ينقذ جيلا/ من هَلْكى/ قد ماتوا قبل الموت» . قيل لنا يوما أن أفضل الأوطان أغلاها مهوراً ، كان الدم غاليا يغلو ويغلي . . . وبقينا نعمل بهذا القانون ردحا من زمن ، اعطينا الأوطان كل شيء لأنها كل شيء ، فأعطونا الأوطان وعندما أردنا مقاربتها تمنعت وامتنعت علينا ، فلم تلد وتبين

أنها لم تولد . . .

وانتشر العقم . . . وها هو الآن النظام الجديد قادم على صهوة حمار وحش فلربما انقلبت المعايير (متى كانت غير مقلوبة ؟) لتصبح أفضل الأوطان أرخصها مهوراً ، على أساس من حساب قوة العمل المبذولة وفائض الأنتاج وفائض القمة . . . تبطل الحاجة إلى الدم ، يتوقف العرض والطلب ، تصبح الكرامة امرأ زهيداً ، يبذل عوضاً للوطن ، فيُعطى الواحد منا وطنا (بالدور) ويُعطي كرامة ، وفي الليلة **الأولى يكتشف أنه لم يعطَ شيئاً ولم يُعطَ ـ تعادل بدون أهداف ـ ربحنا !!! شدت أمي بطنها بحبل من قنب شدته على بطنها ، وذهبت غدوة مع الندى قبيل الشمس إلى حقل الحنطة « حزمينا الحنطة حَذْر خُصُوْرها » (مظفر النواب) .**

تركتني مقمطا في السرير (المهد) الخشبي الأزرق . . . الطفل في السرير الخشبي ، بالقماط ، حاله حال أي عميل أو تابع أو مستعمر للأجنبي ، الأمريكي أو البرتغالي أو الأوكراني أو السيريلانكي الخ . . . كلما احس أن القماط قد أرتخى قليلا حرك يديه ليوسع مدى يديه ، وتعود أمه ، باعتباره عميلا لها أو تابعاً ، فتشد القماط ، حتى لا يخرج يديه مقدمة لخروجه . . . ولكنه يخرج ، ولا يستمر الحوار بين التابع والمتبوع أكثر من سنة ، على عكس

مـا يجري في التـاريخ الحـديث ـ بسبب الحداثـة ربما ـ بين التابع في الأقتصاد والسياسة والثقافة وبين المتبوع .

وفي التاريخ القديم خرج علي ابن أبي طـالب (ع) من مسجد الكوفة فتبعه المصلون فالتفت إليهم في بعض الطريق وقال : أبكم حاجة ؟ قالوا : لا ، قال : من لم تكن به حاجة فلينصـرف فان خفق النعـال خلف اعقاب الـرجال ، مفسـدة للقلوب ، تفسـد قلوب الأتباع بـالمذلـة والهوان وتفسـد قلب المتبوعين بالأنانية والكبرياء .

وعلى ذكر الحداثة والتبعية قال عبد الحميـد بن باديس في اوائل هذا القرن : لو طلبت مني فرنسا أن أقـول اشهد أن لا إلـه إلا الله ما قلتهـا . . . وعنـدمـا قـرر الفـرنسيـون مـع المتفرنسين تعليم المرأة الجزائرية قال : دعـوهن أميات حتى يلدن لنا الشهداء . . .

أيمكن أن يكون الجهل علماً!!! يكون ، عندما يكـون العلم جهـلا!!! ويكـون ؟ كـان يكـون! «ألا لا يجهلن احـد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا» .

تـركتني أمي في السريـر مع قـطعة من راحـة الحلقـوم ـ قـطعة واحـدة من الفجر إلى الـظهـر ـ ملفـوفـة بقـطعـة من الشاش الأبيض مربـوطة إلى جسـر السريـر الأزرق مدلاة إلى حلقي .

توقف والدي عن الحصاد ظهراً وقال اذهبي يا خديجة إلى طفلك وأنا اتابع الحصاد وحدي . . لا تنسي أن تعدي لي مخيضا إن تيسر . . .

كان وجهها فائراً من التعب والشمس والصبا . والقمتني ثديها وهي على هذه الحال ، ورحت اعب الحليب وهو ينهمر في حلقي كالمطر ويدفق كالنهر وينبجس كالدم في حرب أهلية لا طائل تحتها ولا فوقها ولا وراءها ولا أمامها ولا عن جنبيها ولا علاقة لأطرافها بها . . . واصابتني حمى الأمعاء ، مرة في موسم الحصاد ، ومرة في قطاف التبغ ومرة في قطاف الزيتون ومرة في تعشيب حقول القمح والشعير ، فتساقط الزغب الناعم عن جدران امعائي ، ذلك الزغب الذي يمتص الدم وينقيه ويرسله إلى الخلايا التي تحتاجه . . . اصبت بفقر الدم على كثرة دمي المسكين بل لكثرته قياساً على النفط . . . وهكذا أيها الأخوة كان دمي مركبا من الشمس والتعب والعرق والصبر والصبار والشوك والشوق والتبغ والحنطة والحب .

ـ الن تكف عن هذا النرجس ؟ كلما ساورناك على باب مشاغلنا ذهبت إلى نرجسك ورحت بعيداً أو عميقا في حكاية الذات ، ألا تكسر هذه المرآة!!! ذبحتنا! .

ـ يا أخي ورفيقي العزيز عندما يفلت الموضوع من

يـديـك ووعيـك لا بـد أن تتــورم ذاتـك فيــك وتصبـح بؤرة للأسقاط ، ترى الزمان والمكان مجتمعاً فيك . . . أمن غير خيبـة قال ذلـك العارف المنـدهش : أنـا الحق ؟ وراح أهـل العـرفـان ، أهـل الـذوق ، أهـل الحقيقـة ، يتحــدون حينـا ويحلون حينا . . . عندمـا يعطل النـاموس ، لا يبقى لنـا إلا أن ندعي الحقيقة ونذهب عميقاً في الذات نحوها .

وقد تكون مدعى وحسب ، وهما ولكنهـا تسلي . . . عندما يتلاشى الموضوع تقيم الفرضية مقامـه فتقوم ، وتتحـد أو تحل ، في الناس في الـوطن ، في الله . . . «انا الـدولة» «انا من اهوى ومن اهوى انا» والسيـاب يقول : «احببت فيـك عـراق روحي ، أو حببتـك أنت فيـه» ويقـول التـركي نـاظم حكمت : «وطني حيث تكون زوجتي» ويقول مصطفى جمال الدين :

يـا أنـت ، يـا وطنـا حـملت ربــوعــه
في غــربتي وجمعتـه بشتــاتي . . .
عـيـنــاك مـنـبــع رافـديــه ومــلـتـقــى
فــرعيـك خضــر مــروجــه النضــرات

وقـال رسـول الله (ص) : «كـان حجـر في مكـة يسلم علي» .

ـ دعني من التـداعي فاني احـاول أن اقـوم . . . اين

انت الآن ؟ هل هذه في نظرك هي اللحظة المناسبة التي اكتشفها لينين بن أبي جهل في صلح بريست ليتوفيسك ؟

ـ دعني اخلط واخلط . . . فدمي يصلني أواخر الشهر أو أواخر الفصل أو أواخر الوطن ، باليد مرة وبالقدم مرة بنكنوط تارة ومسكوكاً تارة ، بالشلن النمساوي حينا وبالزلوطو البولوني حينا . . . يصلني ولا أصل ، يصلني إلى وطني ولا أصل إلى الوطن ولا يصل إلى الوطن . . . أني مقطوع منقطع مقطع . . سوف استقيل من دمي لحظة لألم شتات هذا الجسد ، واضع اكليلا من الشوك على درب الخليفة . . . وفي آخر الحزن ينبت العشب . . . وهناك قطرة من ندى نسيتها لنا الشمس بين البرعم ولحاء اللوز . . . قد تكون موعدا لفرح . . . «يا طالع الشجرة ، هات لي معك بقرة ، تحلب وتسقيني ، بالملعقة الصيني» .

***

همسة إلى قرن من الوجدان والوهج والأبداع والفوضى إلى شاب نجفي عمره تسعون . . . إلى الجواهري .

اقول لنفسي اذا ضمها
واترابها محفل يزدهى
تسامي فانك خير النفوس
اذا قيس كل على ما انطوى

واحسن ما فيك ان «الضمير»
يصيح من القلب أني هنا

الجواهري اواسط عام١٩٤٧ .

لا تزعل يا أبا فرات فان بين الشعر ـ الفن ـ والسياسة ـ الحرفة ـ ما بين الصورة الفنية الجميلة وبين التفسيخ والتفتيت القاسي الذي مارسه البلاغيون ـ تقنيو البلاغة ـ على شعرنا منذ القرن الرابع حتى آخر مملوكي وآخر فرنجي في بلادنا . . . ما الذي دهاك حتى تضع نفسك وروحك بين يدي السكاكي وقدامة وأبي هلال ؟ لو كان عبد القاهر أو الراغب أو أبو حيان أو الشبيبي أو الشرقي أو الحبوبي أو فهد ـ فهدك ـ أو فيكتور غارا أو بابلو نيرودا . . . لو كان هؤلاء أو بعضهم حاضراً لهان ، أو لما كان الخطب . . . أو قل لكانت السياسة شعرا والشعر سياسة وكنا انتهينا للحظة ، ليوم أو أثنين أو ثلاثة ، لعراق جديد ، من هذه الثنائية ، ينتهي التعدد والتوازي عندما يصبح التخالف تنوعا وتنويعا يأتي من الأصل . . .

أنا لا أريد أن أذكرك بالسعيد الذكر ـ ابن العلقمي أو شاور أو ضرغام أو أو . . . وأنت تعرف أنكم في العراق ، آتون من رحمكم النجف ، من حصار١٧ـ١٨ إلى العشرين . . . نهضتم ضد الأفرنجي إبان انتصاره وهزيمة

التركي . . وكنا ، كان كثير منا هنا ، يتكيف مع الأفرنجي القادم قبل سقوط التركي . . . قبل العشرين . . . فمن حقنا عليك أن تغضب عندما ترى السلم متكسرا . . . سلم السياسة عندك هو عروض الشعر وهو سلم الموسيقى وهو النسق الجميل في سعفة النخل وشجرة «الرازقي» . . . اهدأ يا أبا فرات . . فمرة يسبقنا الأهل ونلحق بهم ، نلتحق ، ومرة نقودهم ، أو هكذا يبدو . . . ويبدو الآن أنهم طليعتنا . (بعد وكت نلحق) . . .

اقرأ يا ابا فرات معي شعر الجواهري :

اجب ايها القلب الذي لست ناطقاً
اذا لم اشاوره ولست بسامع
وحدث فان القوم يدرون ظاهرا
وتخفى عليهم خافيات الدوافع
يظنون أن الشعر قبسة قابس
متى ما ارادوه وسلعة بائع

واذكرك لأعزيك بنص ماركسي لم تقرأه لأن تقدميتك المصبوغة بالأحمر ، يحول لونها ، الطلاء ، عند أول نعي كربلائي ، ولأن تقدميتك لم تكن تقدمية كتب ونصوص . . . هي تقدمية الفطرة والعفوية والغضب والأنحياز التكويني للعدل والوطن . . . ولذلك ما زلت

تقدميا۔ على الرغم من البيروسترويكا ـ وما زلت شاعراً . . . حتى لو لم تقل شعرا . . .

وما زال الكثيرون رجعيين وغير شعراء على الرغم من الكتب المترجمة التي يستظهرونها۔ كما استظهر زميل لك مثلا الفية ابن مالك ولم يستطيع اعمال حروف الجرف ـ ما زال الكثيرون دون عتبة الشعر على الرغم من المطولات ، دواوين وقصائد وايديا وألسنا۔ جرابات ـ يقول ماركس معلقا على احتلال بريطانيا للهند : «أن انكلترا التي تستهدف غايات مغرضة في هذا البلد كانت على الرغم من كافة جرائمها اداة غير واعية للتاريخ وكان عليها ان تنجز هناك رسالة مزدوجة ، تقويضية وانشائية هي القضاء على المجتمع الآسيوي العتيق من ناحية وارساء أساس مادي لمجتمع غربي في آسيا من ناحية أخرى» هذا حتى لا اثيرك أكثر باستعادة موقف وكلام انجلز واستبشاره باحتلال الجزائر فالنص طويل والدرب طويل وبال الشعراء غير طويل . . . ولكني أسألك على فارق العمر والشعر بيننا : ألا ترى أن النظام الجديد يقع في مدى النص الماركسي وعمقه ؟ ثم ألا ترى إلى ما آلت إليه الهند من تقدم وازدهار وتخمة ؟ فلماذا الزعل ؟ الا قبحاً وترحا لوجه المستعصم ، خليفة ورفيقاً قائداً ، والذي اضطرنا برعونته أن نعود إلى التذكير بالأصول

والمسلمات . . . والضروريات والبديهيات . . . وما خفي عنا وعنك فهو أعظم . والسلام .

الكفاح العربي ١٩٩١/٤/١

قراءة في ذاكرة السيد ميم واوجاعه

بزغ فجر العالم الجديد .

(بـــزغت السِّنُّ ـ بَـــزْغـــاً وبُـــزوغـــاً : شقــت اللحــم فخـرجت ، والطبيبُ الجلْدَ ـ بَـزْغاً : شـرطه فـأسال دمـه) . (والفجر انكشاف ظلمة الليل عن نور الصباح وهما فجران : احدهما المستطيل وهو الكاذب ، والآخـر المستطيـر المنتشر في الأفق وهو الصادق ، ويقال : طريق فجْر أي واضح) .

قبل سويعات ، كان الغرب قد دخل في الشرق ، كمـا يدخل الوتد في الجدار ، والخيط في ثقب الأبرة ، وكما يلج

الليـل في النهار ، وكـان الشرق قـد دخل في الغـرب ، كمـا يـدخلِ المكيـلِ في المكيال وعـود الشجر في اللحـاء . . . وبـزغ الفجر من مكـان ملتبس ، هجين ، موَلَّـد ، ملاطي ، خلاسي ، .

يمكن أن يقـال لـه شـرب أو غـرق أو شـر بغـرق أو غرقشرب أو شرقغرب أو غـربشرق . . ويمكن أن لا يقـال له شيء لأنه لا سابقة له في التاريخ أو في الأستعمال اللغـوي ليقاس عليه . . .

ـ وغرب القوم : ذهبوا ، وأغرَبَ الرجل الأسمر ولد لـه ولـد أبيض وأغْـربَتِ المـرأة السمـراء أتت ببنين بيض . . . والغَرْب الذهب والفضة . . . وشرق وجهـه احمر خجـلا ، وشـرق الدم بجسـده ظهر ولم يسـل ، وشـرقت الآلـة غَصت بـوقـودهـا ـ مُحـدَث ـ والأرض جفت من عــدم الـري . . . والأشراق انبعاث نور من العالم المحسوس إلى الذهن به تتم المعرفةً .

قالت الحاجة نون جـدة السيد ميم عنـدما سمعت هـذا الكـلام . . «بنحكي عن شكي عن بكي عن دبس شـديـد بعلبكي . . قمت دغشي لَحُط للتبن جحشـي لقيت الـحيط بينقـر بالحـرامي . . . ضربتـو وضـربني . . .) لم تكمـل وانصـرفت إلى دجاجتهـا التي تعانـد الديـك فيقـول شعـراً ،

والحاجة نون لا تحب الشعر لأنه ذهب ساقها وسُمَّاقها .

وانتصب النور الأزرق ، عموداً ، اصله في الأرض . . . أرضنا هذه التي تتكلم لغتنا ، وتحبنا ونحبها واحياناً لا نحبها وتبقى هي على حبها لنا أو إيانا ، نشتريها تحبنا ، نبيعها تحبنا ، نهجرها نهملها نأسرها تحبنا ، نعشبها ، نحرثها نزرعها نحررها تحررنا ، تحبنا ، ولكثرة ما تحبنا نعود فنحبها ، ولكثرة حبنا لها نقايضها بالسلام ، نقدم عرضاً أو نقبل عرضاً ، عندما نقدمه يرفض عندما نقبله يُسحب ، يُعرض البائع والمشتري عن عرضنا ، يضرب بعرضنا عرض الحائط وعرض البحر ، وينتهك العرض ، العرض العرض وعرض الأرض ـ .

وفرعه في السماء ـ عمود النور ـ سمائنا ، اذ لا بد لكل أرض من سماء ، تساويها مساحة كما يساوي غطاء القِدرِ القِدْرَ أو يفيض عنه وعليه قليلاً حتى يحتويه ويحفظه ويحتفظ بحرارته وأسراره . . . وتوازيها فلا يبغيان . . . حتى لا تصبح الأرض سماء فتستحيل الحياة على وجهها وظهرها وبطنها وفخذيها وقدميها ، فإذا ما انعدم التعدد ، تسود المِثْلية ـ والشذوذ مِثْلي ـ وفي التنوع الخِصْب . . . ويصبح الوجود تكراراً وتصبح الأرض علبة كبريت والناس والأشياء والزهر والثمر والنحل والنمل اعواد ثقاب . . . كما اراد

لينين وستلين من بعده وخالد بكداش أن يفعلوا بالعالم ، وحينئذ تنعدم الحركة والأبداع والحب ويهرب الناس جوعى بالآلاف سباحة من تيرانة إلى بروينديزي وتصبح روسيا ولاية اميركية . . . وحتى لا تصبح السماء أرضاً فتصبح عرضة للدنس ولا يعود هناك لأهل الأرض مطهر ولا مجال للتسامي والشفافية والشعر والدراما والبكاء والضحك والخير والأحسان والرحمة والامل والخطيئة والتوبة ـ . . . والله اعلم ، والعهدة على الناقل ، وما آفة الأخبار الا رواتها والشعوب الا حكامها والأنظمة الا مثقفوها .

ثم ما لبث العمود الأزرق ان طفق يذهب عرضاً ذات اليمين وذات اليسار معاً ، في نفس اللحظة وبنفس السرعة والوضوح والكثافة والجدارة والخبث والشطارة ، كأي حديث نعمة أو لص رسمي اكتشف اللعبة ، فكف عن ان يكون لاعبا ملعوبا والعوبة ، اصبح مخرجاً ومنتجا وكاتب سيناريو وموزعا للأدوار صانعا لها في السياسة والأقتصاد كما في الفن والثقافة ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ . . . وقال صاحب السلطان للأديب : لو خدمت السلطان ما أكلت الحشيش فقال الأديب لصاحب السلطان : وأنت لو أكلت حشيشا ما خدمت السلطان .

وما هي إلا سويعة من زمن ـ زمني يا أخت هواي

عدم ـ حتى مالت الزرقة إلى بياض داكن ، كأن فيه دخاناً آتيا من حرائق غابـرة(الغابـر الموغـل في الماضي والمـوغل في المستقبل) «ولما انقضت الأربعون يوماً ـ يقول صاحب البداية والنهاية إبن كثير ـ بقيت بغداد خاوية على عـروشها ليس بهـا أحـد إلا الشاذ من النـاس والقتلى في الطرقـات كأنهـا التلول وقـد سقط عليهم المـطرفتغيـرت صـورهم وأنتنت من جيفهم البلد وتغيـر الهواء فحصـل بسببه الـوباء الشـديد حتى تعـدى وسرى في الهواء إلى بـلاد الشام فـاجتمع على النـاس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون» . . .

وطلعت الشمس ونزلت فطلعت فنزلت ، ثم طلعت ثم نزلت ، ثم نزلت ثم نـزلت . . . وإذا ما نـزلت نزلنـا وإذا ما طلعت نزلنا ، وعندما التقينـا بين غيمة من حـزن وسحابـة من دخـان بكت وبكينا فكفكفت وكفكفنـا ثم ضحكت وضحكنـا وقضينا لبانـات القلب مع قليـل من الهوى ، وكـانت شاحبـة زادهـا الشحوب سحـراً . . . وتعانقنـا ، اعتنق الواحـد منـا الآخر بعدما اتفقنا على أن لا نتأثم أو نأثم واستعدنا قول عمنا الشريف الرضي : «بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى ، يلفنا الشوق من فرع إلى قدم» .

وبقينـا على هذه الحـال سحابـة من نهارنـا . . . كأن الصاعقة لم تصعق وكـأن العاصفـة لم تعصف وكأن فلسـطين قد اقتربت وكأن الأندلس قد عادت ففتحت ذراعيهـا وطالعتنـا

نافورة الماء في حمراء غرناطة بعد اغلاق «الهورس شو» في حمراء بيروت وهدم مقهى الفيشاوي على فم خان الخليلي وأمتار من باب الفتوح في القاهرة . . .

وعندما اصبحت الشمس رأد الضحى ، ذهبت عن عيني غشاوة ولبست قلبي غشاوة فقرأت رسالة هولاكو إلى الرفيق المستعصم بالله وفيها :

«احذر الحقد والخصام ، ولا تضرب المِخْصَفَ بقبضة يدك ـ المِخْرَز ـ ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب» .

صه يا هولاكو :

على أعقابنا جيد حسان
نحاذر أن تقسم أو تهونا
ملأنا البر حتى ضاق عنا
وظهر البحر نملأه سفينا

ولكن الرجل ـ هولاكو ـ كان قد قتله الغرور وسوء تقديره لعاقبة الأمور وما كنا أعددنا له من حيلة ووسيلة فقال مخاطباً رفيقنا الفارس المستعصم بالله العباسي : «وحينما أقود الجيش إلى بغداد مندفعا بسورة الغضب فانك لو كنت في السماء أو في الأرض فسوف أنزل من الفلك الدوَّار وسألقيك من عليائك لاسفل كالأسد ولن أدع جيشاً في مملكتك وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار» .

واستدعى الخليفة فـريق عمله وعقد مجلس ازمـة «من بينهم القاديانة مسؤولة الحريم ـ الجواري ـ التي تعين لـه كل ليلة الجارية التي يبيت معها بعد ان تكون قد أعدتها لـه مشطاً وصبغا وتعطيراً وأبرادا ودنـاً وأكؤساً وطعـاما ، غـالباً مـا يكون حوتاً صغيـرا مطبـوخاً بـالسمن والعسل والـزعفران مـع امعاء الدجاج محشوة بنخاع العصافير تقدمها للخليفـة في حجرتهـا على اطباق من ذهب تذهب صباحا إلى مقصورة القاديانة ثواباً على تدبيرهـا ، تقدمهـا على سماط وتجلس بعيـداً تنظر إليـه يأكل ويرمقها بين لقمة وأخرى بطرفه فتراقب أين تقع عينه من مفـاتنها فـاذا كان مكشـوفا بـالغت في كشفه واذا كـان مستورا كشفتـه . . . وبينهم كبير الـطباخين ـ الشيف ـ وكـان خراج خـراسان لا يفي بـاحتياجـات مطبـخ وإليهاـ . . . إلى آخـر المنـظومـة من أهــل التفـويض والتنفيــذ من الحكمـدار إلى الـدويدار ، إلى السـلاحـدار إلى الـدربـار إلى السيـاف إلى الساقي وغيرهم من الكوادر العليا والمتقدمة والوسيطة واليـزك ـ مسؤولي الأمن العيــون الهـداهــد العسس ـ» وطلب منهم تقريراً مفصلا عن معنويـات الجمهور والجمهـورية والقـوات المسلحة وقواعد الصواريخ والمجانيق والعـرّادات والمسائـل اللوجستيكيـة . . . فـأفهمـوه أن كله تمـام وأن حبـه لـلأمـة والوطن والمواطنين قد أثمر في قلوبهم عشقاً له يخشون على تقـدير النصـر أو الهزيمـة أن يصل إلى حـد التـأليـه فضحـك

بحبور واهتز طرباً ووعدهم بأن يعالج الأمر عند حدوثه كأن يأكل أمام الجمهور ـ سندويش ـ في الشارع العام ظهر أول يوم من أيام النصر أو يذهب إلى المرحاض ويبقي الباب مفتوحاً أمام الجمهور أو يبول في الشارع أمامهم أو يخرج إليهم وهو سكران يستفرغ ما في بطنه على ثيابه أو لحية الوزير- وزير الأعلام أو وزير الخارجية أو وزير الدفاع ـ أو يخرج ومعه زوجته التي من عائلته أم ولي العهد . . . ويتعارك معها أمامهم ويرونه وهو يهرب منها وهي تلاحقه بالقبقاب على رأسه لأنه منصرف إلى جواريه ولا يتعاطى معها إلا بروتوكوليا في المناسبات الرسمية . . . أراد كاتبه أن يذكره أن الهنود يرون البقرة ملوثة بروثها ورغم ذلك فهم يعبدونها ولكنه خاف أن ينقص اجره عند السلطان ويكثر ثوابه عند الله . فبلع لسانه وعقله ودواته وقلمه وضميره واتكل على الله وكتب كتاب الخليفة جوابا على كتاب هولاكو قال :

« . . . الا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . . . أنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في أيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران واضع كل شخص في موضوعه وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والأضطراب . . . وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب

واحد ولسان واحد . . . وأن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، إن لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة . . . أنهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان» .

واقتربت طلائع هولاكو وأخذت طائراته تدك البيوت والجسور والناس والصحارى والفلوات والنخيل وحقول الأرز والحنطة وعابات البردي ومقهى البرلمان في شارع الرشيد ومحلات لبن اربيل ومكتبات شارع المتنبي وقاعةالكندي وابن النديم وساحة السعدون وتمثاله واطلال المدرسةالنظامية وأطراف الكاظمية وجسر المسيب وساحة المربد وقصر الاخيضر . . . وطارت طائرات الخليفة إلى بلاد الري وهمدان وقزوين . . . كأنها طيور مهاجرة تبحث عن مكان تبني فيه أعشاشها وتفقس افراخا طائرات كثيرة يدخرها جبار للعبه وفراغه وتصحيح المسيرة في الداخل من الداخل على الداخل .

وأرسل الخليفة وزيره إلى بلاد الصقالبة مرورا ببلاد الديلم والكرج وأرسل إلى هولاكو كتابا قال فيه : أن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ، ها أنذا قد لبيت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته» .

وفشلت المبادرة ، واعلن هولاكو فشلها وعدم

استجابته لها . . . وكتب إلى الخليفة يقول : «أن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همدان ، أما الآن فنحن على باب بغداد» قلت لصاحبي وهو من محبي القيصر قيصر روسيا القديم والوسيط والجديد . . . أن القيصر متفاهم مع الخان هولاكو فضحك صاحبي ووافق فانتصرت . . .

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال ، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة ، جاءها سهم وهي ترقص بين يديه فانزعج الخليفة وفزع فزعاً شديداً . . . وعند المساء خرج هولاكو إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء اللاتي باشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن ففعل فكن سبعمائة امرأة فاخرجهن ومعهن ثلاثمائة خادم خصي . . . وقتلوه رفسا وهو في جوالق (أكياس) . . . » أنتهى النص وأنتهى الخليفة .

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى اذا نبشوا من قبورهم وقد انكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى واجتمعوا تحت الثرى . . . وأنتشرت فيهم الكوليرا والأسهال الشديد وحالات التسمم لقلة الماء وتلوثها وفقدان الغذاء والأدوية وحليب الأطفال وصاروا اذا ما خرجوا إلى

الشوارع تلصق بوجوههم كتل رمادية لزجة وعندما قـرأوا الآية الكريمة ﴿ **قفوهم أنهم مسؤولون** ﴾ والحديث «الساكت عن الحق شيـطان أخرس» وامتشقـوا احـزانهم وآلامهم وغضبهم وخيبـة آمالهم وانهمـروا مـطراً ، مـاء ، انهـارا ، إلى جـانب الفـــرات ودجلة . . . حتى لا يـنضـبـا ، حتـى لا يســرقـا ثانية . . . عـادت المدافـع التي غادرت مـواقعها لتتخـذ من بيـوت الطابـوق الأحمر والسعف أهـدافا لهـا والكيميـاء التي أعـــدت لتغسـل وجــه القـدس عـــادت لتلوث وجـه النجف وكـربـلاء . . . ووقف الــذي استبـاح ظــل علي والحسين والعبـاس ذات يوم ـ وقف على جثـة العراق آخـذا بيد يـزيـد يرفعها ويلوح بها إلى التاريخ والجغرافيا ـ أنتهت خطبتي .

على امـواتـك المتنـاثـرين بكـل منحـدرِ
سـلام جـال فيـه الـدمـع والـوجـدُ

على المتبـدلات لحودهم والغـاديـات قبـورهم طـرقـا
وطيب رقادهم أرقا

يحن إلى النشورِ . . . ويرقب موعد الربِّ

السفير١٨/٣/١٩٩١

قراءة في دفتر السيد ميم وذاكرته وأحواله

صبحني صـــاحبي مُغْضباً متعجبـاً . . . قـال : ألم يلفتك أن كويتيا قبل العلم الأمـريكي بشهوة ؟ قلت : لا . . قـال : لمـاذا ؟ قلت : لأني لا اصـدق التلفـزيـون والأعـلام غـربي أصلا وفصـلا نشـأة وغـايـة . قـال : تضحـك علي ؟ قلت : بـــل على نفسي . قـــال : ومتى ينتهي الضـحـــك ؟ قلت : في المدى المنظور لن ينتهي . قال : طيب والكويتي الـذي طالب اسـرئيل بـاحتـلال الأردن لتـأديب الفلسـطينيين الذين يعتدون على اسرائيل التي تـدافع عن نفسهـا ؟ قلت : لا أصـدق . قـال : على من تضحـك . قلت : أني أبكي .

قال : اذن . . . قلت : انتصرت أنت فأنت وبوش وصدام حسين منتصرون . . ونا المهزوم الوحيد بينكم . قال : هذا لا يستوي في المنطق . قلت : بل يستوي . قال : لا يستوي . قلت : يستوي رغما عن آنفك ، لماذا تستضعفني وتريد لكلامي وحده أن يستوي في المنطق وعلى المنطق ؟ . . وكيف يستوي كلام ذلك المهزوم الذي يعلن نفسه منتصرا ؟ قال : هذه مشكلتكم ، أنتم أهل اللغة العربية تذوبون أدبا وخبثا وبلاغة فتنزلون التضاد منزلة التناسب وتقولون للأعمى يا بصير وللمرؤوس يا رئيس وللمملوك يا ملك فما ذنب المهزوم اذا سمى نفسه منتصرا ؟ .

كان صاحبي قد تغلب علي وكسر عيني وقلبي فمضى يقول : حسن اذا كان الكويتي نفطا أبن نفط وأمه نفطة . . . ونفط نفط حتى ينقطع النفس والحياء والرزق . . فما بال العراقي وهو أبن الفراتين وحمورابي واسرحدون وغلغامش وبغداد وسامراء والنجف وكربلاء وثورة العشرين . . . ما باله يقبل يد الجندي الأمريكي بلهفة ؟ ويرقص الدبكة و(التشوبي) و(يهوس) : يعيش جورج بوش ، تعيش بربارا بوش . . كاسرا عروض العامية العراقية وعمودها شعرا لأعنا عرض الذوق العربي !!! .

قلت : غلبتني فافتح معي ذاكرتك وادخل داكرتي ، واختزن مفاتيح لأسرار الذات العربية المضروبة من

الداخل . . ألم تر الفارس العربي الملهم قبل بدء المعركة وفي أيامها الأولى يخرج في شوارع بغداد أمام عدسات التلفزيون ـ سي ان ان ـ خصوصا ـ يمد يده لبسطاء الناس يقبلونها ، ويضحك!!! هذا الكعك من ذاك العجين . . . تعجب من هؤلاء المستذلين المذلولين ولم يأتك أن مؤتمرا حاشدا عقد في بغداد حضره كبار المهندسين وعلماء الهندسة لدراسة الجوانب الهندسية في فكر الرئيس! ومؤتمر آخر عقد في جامعة بغداد حضره كبار علماء الأجتماع والعلوم الأنسيانية وترأسه رئيس قسم العلوم الأنسانية في الجامعة لدراسة مساهمات الرئيس في نظريات علم الأجتماع الحديث!! ومؤتمر آخر عقد في جامعة المستنصرية حضره كبار الأدباء والفنانين والنقاد لدراسة منابع الأيحاء الفني في شخصية الرئيس!!! على من نعتب ؟ وعلى من نغضب ؟ وممن نغضب ؟ .

سجل : خرج الفلاح العراقي زمن الملكية من مضيف شيخ العشيرة الأقطاعي وهو يضحك مستبشرا ، فسأله قريبه : شبيك ؟ـ أي شيء بك ـ قال ، الشيخ ـ الأقطاعي ـ تفل بوجهي ـ بصق في وجهي ـ!!! ويوما كان أحد مشايخ الأقطاع ملتصقا بقفص قبر العباس«رض» في كربلاء ملحا مستغرقا في الدعاء . فجاءه رسول من العشيرة يبلغه عن خطأ وقع فيه أحد الفلاحين . . . فلم يقطع الشيخ دعاءه وأشار

إلى عنقه بيده . . . مررها تحت عنقه . . . قال له بالأشارة : اذبحوه . . فذهب وذبحوه . . .

هذا كان في العهد الملكي الأقطاعي . . . ولكن الفارس الثوري التقدمي أعاد الأعتبار للعهد الملكي ، ملكا وسياسة وسلوكا واقطاعا وكلفه بناء مقبرة الملك فيصل وتمثاله اربعة ملايين دينار وتواصلا . لم يتواصلا . . نحن نعيد النظر في حماسنا لكثير من الحوادث والأحداث ! ! !

* * *

بزغ فجر العالم الجديد والنظام الجديد فقرر السيد ميم أن يتجدد ، أن يأخذ موقعه في السياق الجديد سريعا حتى لا يفوته القطار فيضطر للمشي على قدميه ولا يصل . واذا وصل متأخرا لم يجد أحدا أو شيئا في أنتظاره . .

صرت له أمه زوادته ، هندباء معمولة بالزيت والبصل والحامض ، ربطها إلى زناره . . وقبض قبضة من تين يابس ، دسها في جيب سترته ومضى إلى ديزني لاند .

ركب القطار السريع في ديزني لاند . . أو الأسرع أو الطائر . . أنه شيء آخر . . ومات من الرعب ، ولكنه رأى جيمي واليزابيت يميل أحدهما على الآخر بعنف وغنج ثم ينفصلان ويتباعدان بعنف وغنج مماثل ويضحكان لنفسيهما وحاليهما مرة وعليه مرة أخرى متشبثاً بثيابه دائراً في

فراغ لا يبدأ حتى يبـدأ . . . ولم يمت وعندمـا أدرك أنه حي شاركهما الضحك لهما وعلى نفسه .

وعندما توقف القطار الذي لم يكن قد ابتعـد إلا أمتاراً عن نقطة انطلاقـه ، سجد السيـد ميم شكرا ، رأتـه اليزابيت ساجدا شاكرا صاحت : تورك ، وفركت اذنه بالسبابة والأبهام وقـالت لـه : جـدتي مثلك تحب الله . .جـذبتـه من يـده ، ركضت أمامه وزكض وراءها . قالت أثناء الركض ، أنا أحب الجمل . . المرة الثانية سوف تأتي لي بجمـل . . ضعه في جيبك . . كان شعرها يتطاير في الهواء فيلفح وجهه ويدخـل بعضـه في حلقه وبعضـه في عينيه . . خـطرت أمه في بـالـه فـطردها من بـاله . . هـذه الأمـاكن لا تليق بهـا . . وهي لا تليق لها . . خاف أن يضبطه جيمي منفردا بـاليزابيت ويسـوء ظنه به في هذه الغربـة ولكنها تـوقفت فتوقف . . سـألها عن جيمي فـأشـارت إليـه راكضـا نحـوهمـا وبيـده الـواح من الشوكولا ، أخذت ليز نصيبها وقبلت جيمي في فمه واعـطت السيد ميم نصيبه وقبلتـه في خده ، فـأحس بالضيق والألم في قدميه والحاجة إلى التبول ولكنه تذكر أنه ما يزال على وضوئه وقد ضاق وقت الصلاة فاعتذر منهما وودعهمـا واستقل طـائرة أجرة عائـدا إلى قريتـه وعندمـا أدركه الغـروب فوق الأطلسي أرادا أن يصلي صلاة العصر فنادى على المضيفة وسـألها عن القبلة فأدارات له خدها . . قبلها خوفا من التهمة بقلة الذوق

وحاول التوضيح فسألها عن الأتجاه الذي تقع فيه المملكة العربية السعودية فقالت : أنهم **نقلوها** .

عندما هبط في مطار القرية لسعه البرد فاستبدل بسرواله القصير سروالاً فضفاضاً . . واثناء ما كان مشغولا بذلك نزعا وارتداء لاحظ أنه لم يتحرج من شيء ولم يلتفت إليه أحد . . القى التحية على أهل الضيعة فلم يردوا وتضايق بعضهم من ذلك ، فانتبه إلى أن عاصفة الصحراء والصحراء قد انتهت وأن العلم الجديد والنظام الجديد قد أبصر النور فبردت أعصابه ولكنه قدر أن بعض الأمور الصغيرة كالحب مثلا بمعناه الريفي الشرقي القديم لا بد أن تكون له بقية باقية . . كانت هذه رغبته . . وتوقفت عربة المترو فصعد ووقعت عيناه في عيني السيد أحمد علي حسين العمار ولكن عيني أحمد لم تقعا في عينيه . . حياه فرد بهزة من رأسه . . سأله : كيف حال أم حسين ؟ قال : ماتت قبل يومين . . ثم نهض تاركا مقعده إلى داخل الحافلة وجلس بحيث لا يراه السيد ميم . . . فلم يره . .

❊ ❊ ❊

صديقنا ـ صديق السيد ميم ـ الأمير اسامة بن منقذ الكناني ٤٨٨ـ٥٨٤هـ أمير قلعة شيزر . . فارس أديب شاعر قاتل في الحروب الصليبية مع صلاح الدين في اماكن مختلفة

ـ وهو غير اسامة الذي سلم بيروت للصليبين ـ وسجل بعض مشاهداته اثناء هذه الحروب في كتابه(الأعتبار) ومنها عن الصليبين .

١ ـ «سبحان الخالق الباري! اذا خبر الأنسان أمور الفرنج ، سبح الله تعال وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل . ورأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين (انروالي دمشق) ـ رحمه الله ـ وهو في الصخرة (جامع الصخرة في بيت المقدس) فقال : «تريد تبصر الله صغيرا ؟» قال : «نعم» فمشى بين ايدينا حتى أرانا صورة مريم ، والمسيح (عليه السلام) صغير في حجرها! فقال : «هذا الله صغير»! تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا! فقال : «وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث! فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى» .

٣ ـ «ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت إلى نابلس انزل في دار رجل يقال له : معز داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار أفرنجي يبيع الخمر . فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش! فقال له : أي شيء ادخلك إلى

عند امرأتي ؟ قال : كنت تعبان دخلت استريح ، قال فكيف دخلت إلى فراشي ؟ قال : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه ، قال : والمرأة نائمة معك ؟ قال : الفراش لها ، كنت اقدر أمنعها من فراشها ؟ قال : وحق ديني أن عدت فعلت هذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته» .

٤ ـ ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له : سالم من أهل المعرة ، في حمام لوالدي رحمه الله قال : فتحت حماما في المعرة أتعيش منها ، فدخل إليها فارس منهم ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه ، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي فقال : سالم ، فتقربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد . وحق ديني أعمل لي كذا ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته ، فمر يده علي فاستوطاه فقال : سالم ، بحق دينك أعمل للداما ، والداما بلسانهم : الست ، يعني امرأته ، وقال لغلام له : قل للداما تجيء فمضى الغلام وأحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها ، وقال أعمل كما عملت لي ، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي» .

يقول الأمير الحلبي اسامة في مكان آخر ومناسبة أخرى : « . . وكان في جند الجسر ، رجل كردي يقال له :

أبو الجيش له بنت أسمها : رفول ، قد سباها الأفرنج ، وهو قد توسوس عليها ، يقول لكل من لقيه يوما : سبيت رفول ، فخرجنا من الغد نسير على النهر (نهر الفرات) فرأينا في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : اسبح أبصر ما هذا السواد ؟ فمضى إليه ، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق ، وقد رمت نفسها من على فرس الأفرنجي الذي أخذها ، فغرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف ، فسكنت لوعة أبي الجيش» . . «هجم التتار . . ورموا مدينتنا العريقة بالدمار . . . رجعت كتائبنا ممزقة ، وقد حمي النهار . . الراية السوداء والجرحى وقافلة موات . . والطبلة الجوفاء والخطو الذليل بلا التفات واكف جندي تدق على الخشب . . . لحن السغب . . والأفق مختنق الغبار . . أماه قولي للصغار . . أيا صغار . . سنجوس بين بيوتنا الدكناء وأن طلع النهار . . ونشيد ما هدم التتار»

صلاح عبد الصبور- الناس في بلادي .

السفير٦/٤/١٩٩١

قراءة لما يحدث في ما حدث

أرسل بدر شاكر السياب بهذا الوصف المتقطع للوضع في العراق تحت القصف المتواصل .

أفاد السياب ان جيكور ، قريته ، الواقعة في قضاء أبي الخصيب في الجنوب ،قد قصفت أكثر من مرة وأصابتها قذائف زنة الواحدة منها تعادل زنة بيت بكامله (البيوت هناك صرائف من القصب والسعف) . . . وسقط الجسر الخشبي على نهر بويب ، وعندما رآه السياب يسقط خاف أن يسقط النهر فعاد الى قبره في البصرة ومن هناك ، اتكأ على كبده

وكتب :

« هم التتــار أقبلوا . . . ففي المـدى رعــافْ . . . وشمسنــا دمٌ . . . وزادنـا دم على الصحــافْ . . . غــداً سيصلب المسيـح في العراق . . . ستـأكل الكـلاب من دم البراق » .

« يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم » . . . سلامـاً منهم ، سلاماً لهم ، ســلام عليهم ، سلام عليكم . . . « أهلي وان ضنوا علي كرامُ » لئن لم يـرجعوا ، لئن غـربوا لئن لم يتــوبوا الى رشــدهم ، إلى دمهم ، الى رملهم ، إلى نخيلهم ، إلى خيامهم . . . لئن لم يطرق من ناحيتهم ، من صوبهم ، من طـرفهم ، طارق . . . لأوسعن هـذا القلب صبراً ، لأوسعن هذا الطرس حبراً ولأجعلن هذا القفر قفراً .

« وجيكــور من دونهـا قـام ســورٌ . . . وبـوابـةٌ . . . واحتوتها سكينة » .

« جيكــور / ستولـد جيكور . . . ألنَّـوْرُ . . . سيولـد والنُّور . . . جيكور ستولد من جرحي . . . من غصة موتي من نـاري . . . سيفيض البيـدر بــالقمـح . . . والجــرن سيضحك للصبح » .

« إرجعي يــا شـولميت ، إرجعي ، إرجعي ، فننــظر

اليـك/ ماذا تـرون في شـولميت/ مثـل رقص صفّيْن » نشيـد الانشاد .

هات حدثنا عن بغداد يا أبا غيـلان : « مدينتنـا منازلهـا رَحى ودروبها نارُ » .

« عيـون المهـا بين الـرصـافـة والجسـرِ . . . ثقـوب رصاص رقَّشت صفحة البدر » .

« أهـذه مدينتي؟ جـريحة القبـاب/ فيهـا يهـوذا أحمـر الثيـابْ/ يسلط الكـلابْ/ على مهـود إخـوتي الصغـارْ/ والبيـوت/ تأكـل من لحـومهم/ وفي القـرى تمـوت/ عشتـار عـطشى ، ليس في جبينهـا زَهَـرْ/ وفي يـديهـا سلة ثمـارهـا حجر . . . وللنخيل . . . في شطها عويل » .

« أرى ناموساً آخر في أعضائي ، يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطيئة الكائن في أعضائي ، ويحي أنا الإنسان الشقي ، من ينقذني من جسر هذا الموت . . . لأن اليهودي في الظاهر ليس يهودياً ولا الختان الـذي في الظاهـر في اللحم ختاناً ، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي » رسالة بولس الى أهل رومية .

لعنة الله على جورج . . . الخ . .

يتابع السياب رسالته : كان في كـل مرمى/ صليب وأم

حزينة/ قدس الرب/ هذا مخاض المدينة/ .

« أهذه بغداد؟/ أم ان عامورة/ عادت فكان المعاد/ موتاً ، ولكنني في رنة الأصفادْ/ أحسست . . . ماذا؟ صوت ناعورة/ أم صيحة النسغ الذي في الجذور/ » .

« يؤخذون بالمؤامرة التي فكروا فيها ، لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه . . . كل أعدائه ينفث فيهم ، قال في قلبه لا تزعزع ، من دور الى دور بلا سوء ، فمه مملوء لعنة وغشاً وظلماً ، تحت لسانه مشقة وإثم يجلس في مكمن الديار ، في المختفيات ، يقتل البريء ، . . . قال في قلبه ان الله قد نسي ، حجب وجهه ، لا يرى الى الأبد . . . على أنهار بابل هناك جلسنا . . . على الضفاف في وسطها » مزامير داود (١٠) .

« في الضفة الأخرى . . . يكاد العراق/ يومىء يا أهلاً بأبنائي/ إنا مع الصبح على موعد رغم الدجى يا عراق/ » .

« والموت يركض في شوارعها ويهتف يا نيامُ/ هبوا فقد ولد الظلامُ/ » .

« أنا اضطجعت ونمت ، لا أخاف من ربوات الشعوب المصطفين علي من حولي » مزمور (٤) .

« ابعـدوا عني يـا جميـع فـاعلي الإثم » مـزمـور (٦) « تـورطت الأمم في الحفرة التي عملوهـا ، في الشبكـة التي أخفوها انتشبت أرجلهم » مزمور (٩) .

ضيعت ديـوان السياب/ اخـذوه مني / سرقـوه/ قتلوه/ لن أشتـري الديـوان مرة ثـانية/ سـوف أشتري خبـزاً ودخـانـاً رخيصـاً . . . لقـد أصبـح نفـطهم غـوراً فمن يـأتيهم بنفط جديد؟ . . . « يا بنت بابل المخربـة ، طوبى لمن يجـازيك جزاءك الذي جازيتنا . . طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب عليهم الصخرة » العهد القديم **للنظام الجديد** .

يقول السياب ، رأى الناس في البصرة ، من خوخة في جـدار مسجد التنـومة ، الجـواهري يعتلي كـومة من حـدوج الإبل ويخطب في الناس قائلا :

جـرى ثـائـراً مـاء الفـرات فمـا ونى
عن العـزم يـومـاً مـوجـه المتـدافـعُ
حـرام عـليكـم ورده مـا تـزاحـمـت
على سفحـه تلك الـوحـوش الكـوارع
هـمُ وجـدوا حـول الـفـرات أمـانـيـاً
لـطافـاً أضـلتـهـا نـفـوس نـوازع
ولـو قـد أمـدتـه السيـوف بحـدهـا
لـغصَّ بـمـوَّار مـن الـدم كـارع

فيـا وطـني إن لـم يـحـن رد فـائـت
عليـك فـان الـدهـر مـاضٍ وراجـع
وأحـلامـنـا منـهـا صحيـح وكـاذب
وأيـامـنـا مـنـهـنَّ مـعط ومـانـع
كمـا فـرق الشمـل المجمـع حـادث
فقـد يجمـع الشمـل المفـرق جـامـع
ومـا طـال عصـر الـظلم الا لحكمـة
تـنبـىء ان لا بـد تـدنـو الـمصـارع»

لم يجـد الجواهـري أحداً يصفق ، لأن جميـع الأيدي والأكف كـانت مقطوعـة وأكثر الـرؤوس كـذلـك ، الا رأس الرمح ورأس الرجاء الصالح ورأس الحسين ، كلما قطعـوه عاد والتحم . . . فاستأنف الجواهـري يغريـه صمت البصرة وسكـون الناصرية ونـوم الديـوانيـة ، والبحتـري طـالعـاً من الكوفة ، صحبـة الخليل بن أحمـد ، الى أنقرة عـلَّ مصطفى أتـاتـورك يغـار على اللغـة العـربيـة والعـروض والأعـراض العـربية ، فنصحهمـا نـاظم حكمت بـالعـودة حتى لا يكـون مصيرهما مثل مصير جمال الدين الأفغاني .

قال الجواهري :

هـو الـفـرات وكـم فـي أمـره عـجب
فـي حـالـتـيـه وكـم فـي آيـة عـبـرُ

بينـا هــو البحــر لا تـســطاع غضبتــه
اذا اسـتـشــاط فــلا يــبـقــي ولا يــذرُ
اذا بــه واهــن الــمــجــرى يـعــارضـه
عــود ويـمـنـعــه مـن سـيــره حـجــرُ»

وختم الجواهري بالقول:

« سـلام عـلى هـضـبـات الـعـراق
وشـطيـه والـجُـرف والـمـنـحـنـى
عـلى الـنـخـل ذي الـسـعـفـات
الـطوال على سيـد الشجـر الـمقتنى
ودجـلة تـمـشـي عـلى هَـوْنـهـا
وتـمـشـي رُخـاءً عـليـهـا الـصَّـبـا
تـريـك الـعـراق في الـحـالـتـين
يـسـرف فـي **شـحـّه** والـنـدى» .

وعلق ابو آلاء على كلام الجواهري قال: منذ تسعين عاماً ونيّف ، وأبو فرات ، الجواهري ، يسعى ليل نهار باحثاً عن حتفه وقبره ، ولم يصل ، سيموت نائماً ، ونحن ما زلنا في انتظاره نحضر له وجبة من (المسكوف مع الرطب البرحي والخضيري ـ لسبب يعرفه ـ وقدراً من اللبن المطروق) .

فليأت قبل أن يأتي إليه قبره ، لا يجوز ان يبقى القبر هكذا يبحث عن صاحبه ، وله هنا في البصرة متسع على كثرة

من ماتوا ، فلا يجز عن إذا أتاه خبر بأن مقبرة وادي السلام قد ضاقت بأمواتها .

بالمناسبة ، يقول السياب ، أمس رأيت صلاح عبد الصبور يتمشى في شارع أبي نؤاس صحبة جول جمال وسليمان الحلبي وزهران وبشر الحافي ، نظر صلاح الى سمكة بنية ، تحاول أن تنقذ نفسها من حفرة موحلة في قاع الفرات تحت جسر الشهداء ولا تفلح ، تنزلق على الطين فتنام لحظة على جنبها الأيمن مغمضة عينها اليسرى ، ثم تعاود المحاولة فلا تفلح ، فتعود لتنام على جنبها الأيسر مغمضة عينها اليمنى ، وبعد لحظة تستيقظ وتحاول مرة أخرى فلا تفلح ، فتنام على ظهرها وتغمض عينيها لحظة ، ثم تنهض وتحاول مرة أخرى فلا تفلح ، فتقف على رأسها وذيلها الى أعلى وتفتح عينيها . . . لاحظ صلاح انها حزينة رغم انه لم يعد للصيادين والشباك وجود . . . حدق فيها صلاح ملياً وقال :

« هذا زمان السأم . . نفخ الأراجيل سأم . . . لا عمق للألم ، لأنه كالزيت يطفو فوق صفحة السأم . . . لا طعم للندم ، لأنهم لا يحملون الوزر الا لحظة ويهبط السأم » . . سأله جول جمال عما حدث للأطفال في نجع حمادي ومدرسة بحر البقر فقال صلاح «وثوى في جبهة

الأرض الضيـاء ، ومشى الحـزن الى الأكـواخ تنين لـه ألف ذراع ، كل دهليز ذراع ، من آذان الظهر حتى الليل ، يا لله ، في نصف نهـار ، كـل هـذي المحن الصمـاء في نـصف نهـار » . . . وهـوى جسـر آخـر وعـلا دخـان من نـاحية العـامرية . . فتفرق الصحب أيـدي سبـأ . . كـان صلاح يركض وهو يردد من شعره :

. « يـا صاحبي اني حـزين / طلع الصباح فمـا ابتمست / ولم ينـر وجهي الصباح / . . ورجعت بعـد الظهـر في جيبي قُروش / فشربت شاياً في الطريق . . ورتقت نعلي / . . . ياتعسها من كلمة قد قالها يوماً صديق / مغرى بتزويق الكلام / كنـا نسير / كفي لكفيـه عناق / والحـزن يفترش الـطريق / قال الصـديق / يـا صـاحبي : مـا نحن الا نفضـة رعنـاء من ريـح سمـوم / أو منية حمقـاء / والشيطان خـالقنا ليجـرح قـدرة الله العظيم » .

يرجو بدر شاكر السياب من كـل محبيه ان يعيـدوا قراءة حمـاسة أبي تمـام والمتنبي وتحولات الصقـر لأدونيس وأمـل دنقل ووليد جمعة حميد والـراعي النميري وقيـدريكو غـارسيا لوركا ويذكر لأدونيس هذا الكلام الملتبس :

« هـدأت صيحة البـراري / الغيوم تسيـر على النخـل / تجنـح في آخر النخـل وردية الصـواري . . هـدأت صيحـة

الرجوع . . ليس في عيني شيء من حياتي ، غير أشباح حزينة ، غير ان الشجر الباكي على أرض المدينة/ عاشق يسكن قلبي ويغني أغنياتي . . يا مرايا الضياع الطويل ، غيري صورة القمر » . «والسماء على الجرح ملصوقة/ والضفاف/ تتهامس تلتف/ بيني وبين الضفاف/ لغة/ بيننا حوار/ حضنته الكراكي/ طافت به كالشراع/ بيننا . . وافراتاه كن لي جسراً وكن لي قناع/ ترسبت/ غير دويك يا صوت/ قريش/ لم يبق من قريش غير الدم النافر مثل الرمح/ لم يبق غير الجرح/ افتحي يا براري مصاريع أبوابك الصدئات/ » .

وعندما خاطب أدونيس جمال عبد الناصر بقوله : «سحر تاريخك انتهى/ ادفنوا وجهه الذليل وموروثه الابلها/ واعذري واغفري يا قرون الغزالات/ يا أعين المها/ » .

إلى أين كان يريد ان يبعث بنا؟ «هنا باقون كالأزل» و«يا حاصد النار من أشلاء قتلانا . . . » منك الضحايا وان كانوا ضحايانا/ ان العيون التي طفأت أنجمها/ عجلن بالشمس ان تختار دنيانا/ » . من طرفنا ، يقول السياب : سعدي يوسف ويوسف الصايغ يهديان سلامهما الى السيد مصطفى جمال الدين ومظفر النواب ووليد جمعة حميد ، ويقول سعدي لوليد : لقد طارت الحمامات من جدارية فائق حسن في ساحة الطيران ومات بائع الفشافيش في الباب

الشرجي وهرب خوشابا من البتاوين الى الجبايش ولكنا نـذكر قـولك: «ووليـد المشهداني يتـردى اليوم في مـوقعة أخـرى/ ويصغي للدوي الهرم المصعوق في أروقة الرأس/ ولا يدري لمـاذا؟ فلقد قـالوا: عليـك الآن أن تفتـح دربـاً تحت سـطح الأرض يفضي للسمـاوات العـريضـة/ غيـر ان الكلمـات المستدقات الحـروف/ لم تعد تحفـر غير القلب/ إذ داخت/ ولن تستنشق الليلة موسيقى الليالي/» .

ويـوسـف الصايـغ يذكـر جمال الـدين بريـاح بني مازن «وعذابات مالك بن الريب» ويذكره بقوله:

« بغداد ما اشتبكت عليك الأعصرُ

الا ذوت ووريق عمرك أخضر» .

ويقول لمظفر النواب «وكهـاوي العبْرة/ شمـا يضوَّنْ ، عتمة بليه ليالكم» . أبا غيلان/ أبا غيلان/ هل تسمعني؟

حـوّل ، حوّل ، سي ، إن ، إن ، على الخط/ حـوّل أرجوك ، خذ الشيفرة (٤٨/٦٧/٨٢/٩١) .

غيّر ، بدّل «أنا جمر ثورتك انفجر

غيّر دويك وانفجر . . .» .

« واعلمـوا رحمكم الله ، انكم في زمـان القـائـل فيـه بـالحق قليـل واللسـان عن الصـدق كليـل ، والـلازم للحق

ذليـل ، أهله معتكفـون على العصيـان ، مصـطلحـــون على الأدهـان ، فتاهم عـارم ، وشائبهم آثم وعـالمهم منـافق . . « ان هـذا الأمر لم يكن نصـره ولا خـذلانـه بكثـرة ولا بقلة ، والعرب اليوم ان كانوا قليلاً فهم كثيرون بالاسلام ، عـزيزون بالاجتماع ، فكن قـطباً واستـدر الرحـا بالعـرب فإنـا لم نكن نقاتل في ما مضى بالكثرة ، وانما كنا نقاتل بالنصر والمعونـة» علي بن أبي طـالب (ع) . . «وعلى سقف الزغـاريـد تجيء الطائرات .

طـائـرات ، طـائـرات . . تـأخـذ العـاشق من حضن الفـراشة» . وتغني الفتيـات : «يـا محمـد . . » أبـا آلاء . . كيف هي مشاعرك الآن :

« ردي ردي عن عيني اللي نحر جفاك ما ضيعت ودي
ردي ردي أنا من دم ولحم مو من صخر كبدة لعندي
ردي ردي أنا مش أول زند يزرع نخل ويحصد بردي
ردي ردي أنـا خلاني الـوقت نـاعـور ، بس اتـرس وبـدي» -
اترس : املأ ، ابدي : اصب .

والسمـاء ذات الـرجـع ، والأرض ذات الصـدع ، انـه لقول فصل ، ومـا هو بـالهزل ، انهم يكيـدون كيداً ، وأكيـد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» .

« ألـم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

من قبلهم كانوا أشــد منهم قوة وأثــاروا الأرض وعمروهــا أكثر مما عمروها» .

السفير ٢٨/٢/١٩٩١

قراءة في فصل من الذاكرة

أنـا عاملي من جبـل عـامـل من جبـل القبيلة العـربيـة اليمنية . التي تشأمت فيمن تشأم من القبائل اليمنية بعـد سيل العرم وانهيار سد مآرب ، واستوطنت كتف الجليل . . . من الجبل الذي اتبعه الصليبيون إدارياً بإمـارة القدس . . لأنهم ربما كانوا قد قرأوه جيداً .

على مدى عقود من التجزئة والكيانات المصـطنعة التي عـادت فترسخت . ظلت لغتي ووجـداني وذاكرتي وأشـواقي تتمنع على الكيان . تتجاوزه شعراً وأحلاماً ، تمر به ، تتعامل

معه واقعاً . وتسافر في سوريتها وعروبتها الى آخر المدى المفتوح والمغلق ، إلى آخر الرمل والنخيل ، دون أن تعرج على آبار النفط والغاز .

ترتدي إسلامها شكلاً ومضموناً على عروبة رأت فيها ولها وظيفة حضارية دونها يرتبك الأداء الإسلامي ولا يصل ودون الاسلام هماً حضارياً إنسانياً مفتوحاً واسعاً لها ، تصبح محارة فارغة لا تملك الا ان تتقوقع على هواء وتعتدي لتحيا أو تعيش ولا تحيا ولا تعيش . .

وإذا ما كان التشيع قد غلب علينا لقابلية فينا وفيه ورؤية لدينا فإنه بمقتضى هذه الرؤية لم يحبسنا ولا حبسناه ، لم يقطعنا ، بل أعاد دمجنا وتأهيلنا للفعل في السياق الملائم مكاناً وزماناً واتجاهاً ، لقد اتخذناه نهجاً يغلب مصلحة الأمة والجماعة على مصلحة الفئة ، مسترشدين بفقه أهل البيت (ع) وأخلاقياتهم وسلوكياتهم ، منضبطين بها .

مرة حصلت مشادة بيننا وبين الشيخ ظاهر العمر ثم انهمكنا وإياه في معركة وانتصرنا معاً . . وكنا من قبل قد تعاملنا مع السلطة العثمانية من دون عقد، عارضنا لما فيها من جور نسبي، شأن بقية العرب والمسلمين، وعندما طغى الجور وارتفع منسوبه رفعنا من وتيرة معارضتنا وحجمها، دون أن يصب حبنا في طاحونة الآخر. . . الخارج، العدو. . بل

كنا إذا ما تصدى الخارج ، أي خارج ، لهذا السلطة بالعداء والصراع ، سرعان ما نتنازل ونأخذ موقعنا في الصف الواحد مقابل الخارج المعتدي ، وعلى لساننا وفي الأعماق منا المأثور من قول علي (ع) عندما أشيع في صفين ان جيوش ملك الروم تهاجم أطراف الشام ، قال علي (ع): والله لو فعلها ابن الأصفر ـ ملك الروم ـ لوضعت يدي في يد معاوية أو لقاتلت تحت لواء معاوية أو كما قال . . . في حين كان معاوية بإجماع المؤرخين قد صالح ملك الروم على جزية وفيرة ليتفرغ لحرب علي (ع) .

وفي أواخر القرن الماضي ، كان الإرباك قد بلغ غايته في أداء الدولة العثمانية ، زمن عبد الحميد ، فانعكس ضعفاً وتفككاً وامتد جوراً . وعسفاً يميل المنصفون إلى التخفيف من مسؤولية عبد الحميد عنه ، كونه وارثاً ومستهدفاً لا مؤسساً مقترفاً ، وقد أصابنا في جبل عامل الكثير من الآثار السلبية لهذا الوضع فكيف تعاطينا معه؟

رأينا الغرب وراءه ، يريد من ورائه إسقاط الدولة العثمانية ، لا عقاباً لها على جور ترتكبه إزاءنا وإزاء الأطراف الأخرى من ديار السلطنة ، بل عقاباً على ما حققته من وحدة واسلام حسب منظور الغرب ، وهنا أجرينا حساباتنا الشرعية وحكمنا معيارنا ، معيار المصلحة والمفسدة ، مصلحة الأمة بالطبع ، فكنّا مع عبد الحميد بوضوح قاطع ، بانين في ذلك

أو متزامنين مع موقف ومسعى القائد المجاهد الرمز جمال الدين الأفغاني ، الذي رأى الغرب يتوحد ليعد موحداً لعدوانه على الدولة العثمانية مركزاً واطرافاً . . وكان السيد الأفغاني من قبل يناصب الدولة العداء لاستبدادها وظلمها ويريد أن يسقطها هو ، بيده ولحسابه ـ حسابنا ـ لا أن يسقطها الغرب بيده ولحسابه أو بيدنا لحسابه ، ولملم السيد مبادئه وشرفه وحميته وعلمه ووعيه وذهب الى الأستانة ليقف الى جانب عبد الحميد مشيراً ناصحاً كاد أن يثمر لولا أن تدخل اليهود والماسونيون ـ الألمان والإنكليز معاً ـ ليحدثوا الشرخ بينه وبين عبد الحميد الذي اقترف خطيئة الغضب على الصهيونية والمعاندة لهرتزل ولم يفرط بفلسطين . . وقد كان من إنجازات جمال الدين على هذا الطريق ما أحدثه من فتحة واسعة في السد الذي كان قائماً بين الدولة العثمانية وإيران القاجارية باتجاه الوحدة في مواجهة العدوان الغربي ، قياساً على التجربة التي تمت بعد محاصرة دمياط من قبل الصليبيين بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ممثلة بالسلطان الشهير نور الدين محمود ، وغني عن البيان ان جمال الدين كانت له يد في مصرع ناصر الدين شاه إيران الذي انكفأ في لحظة عن هذا المسار الوحدوي فقتله ميرزا رضا كرماني تلميذ جمال الدين ومريده في المكان نفسه الذي سبق للشاه أن سجن فيه السيد جمال وعذبه في إحدى

ضواحي طهران . . .

هـذا ليس حدثـاً فرداً في تـاريخنا الـذي يتعامـد فـوق الجراح والفوارق والمسافات . بل له جـذور وتقاليـد سابقـة وتجليات متعددة ، مضمـونها الأسـاس المصلحة المضبـوطة بفقه توحيدي وأخلاقية نبوية إماميـة ، تعطي الأولـوية للخـطر الخـارجي بمـا يقتضي ذلـك من تعـطيـل تلك الصـراعـات الداخلية والمشاحنات .

بعـد معركـة (جالـديران) في الـربع الأول من القـرن السـادس عشر الميـلادي ، واحتلال تبـريز عـاصمة السلطنـة الصفـوية من قبـل العثمـانيين وهـروب الشـاه إسمـاعيـل الى اصفهان ، عاد العثمانيون ليجدوا في المصداقيـة الشيعية في العـراق إشكاليـة لا تحل بـالعنف والعداء ، وكـان لا بـد من تعـديل في التـوجه العثمـاني في العراق على تعقيـدات كثيرة وشائكة ، وحصل التعديـل فعلاً ، وتصـدى العلماء لـدورهم التـوحيـدي فكـان الشيـخ جعفـر الكبيـر ـ كـاشف الغـطاء ـ المرجع ، رسول خير بين الـطرفين العثماني والصفـوي ، لم يرسله أحد ، بل ندب نفسه للرسالة ، فقرب ما قرب وحل ما حـل من إشكـالات ومشكـلات ووفـر كثيـراً من المتـاعب والخسـائر والـدماء والمصـالح ، وعنـه ورث حفيده المـرجع الشيخ محمد حسين كـاشف الغطاء هـذا الموقف التـوحيدي عنـدما أمّ المصلين المؤتمـرين في القدس وهم قـادمـون من

أقطار العالم العربي والاسلامي في مواجهة التحدي والعدوان الغربي الصهيوني ومن بعد جاءت مذكرته الشهيرة ـ الكتاب ـ (المثل العليا في الاسلام لا في بحمدون) وثيقة ناصعة في مواجهة محاولة الغرب العدوان على الاسلام بتقويض قيمه السياسة التحررية من الداخل .

وامتدت المواقف والمسالك والمعايير عاملة فاعلة الى ما بعد سقوط عبد الحميد ووصول الاتحاديين الى السلطة بما فيهم من سوء وعنصرية وعصبية وماسونية وروائح يهودية . . . وعندما أكل المخلصون الطيبون من المشاركين في المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ . . عندما أكلوا الطعم الاستعماري بطرح الاستقلال الذاتي لبلاد الشام توسل الاتحاديون التتريكيون بخصمهم العروبي المسلم الصلب عبد الكريم الخليل ليذهب الى باريس ويقنع المخلصين من المؤتمرين بأن الاستقلال الذاتي ليس الا غطاءً لنوايا التجزئة والاحتلال ، وذهب وأقنع وأحدث إرتباكاً في المؤتمر بعدما كان أحد المؤتمرين قد قدم اقتراحاً بإدراج بند الأخطار الخارجية على بلاد الشام على جدول المناقشة فسقط الاقتراح بالأكثرية الساحقة أو الاجماع !!! لأنه ـ حسب التعليل ـ ما من خطر على بلاد الشام سوى الخطر العثماني !!! عشية الحرب الأولى؟ .

وكانت الحرب ، وسقطت السلطة العثمانية التي كنا قد

أصبحنـا معها ، كمـا كل المسلمين لأن عـدوها هـو الآخر ، الخـارج ، الغرب ، العـدو . . . (أذكر المـرحـوم عجـاج نويهض عام ٨١ وقبل سنة واحدة من وفاته كيف كان يروي لنا ويبكي ذكرياته عن الأمير العظيم شكيب ارسلان وهـو يخطب في قـرى المتن الأعلى يستحث الأهـل على التـطوع للدفـاع عن الوطن مقابل الغرب وهـو يبكي بكاءً مـراً وكيف انه جهـز كتيبة قاتل بها في ليبيا . .) بكاها ـ السلطة العثمانية ـ عالمنا المـرجـع التقي السيـد محسن الأمين بقصيـدة طـويلة . . وحـاولنا إنقـاذها في العـراق وهي على مشارف السقـوط دون حسـاب للربـح والخسـارة ، في ثـورة العشـرين التي قـادهـا علماؤنا بنبل وبسالة وشهامة ما زلنا نفتخر بها وسنبقى .

وطـوال فتـرة حكم الاتحـاديين كـان الشـريف حسين وأسرته في مواجهتهم قد وقعـوا في شراك الغـرب ، في قبضة مكمـاهـون ، وكنـا في الخط المقـابـل ، الى أن سـقط الاتحـاديـون ، فـانفتـح بـاب التنـاقض والتنـاحـر بين حسين وأسـرته وبين الغـرب ، وانكشفت المؤامـرة وأصبـح الحسين وأسـرته مـوضوعيـاً في مواجهـة الغرب ، وهنـا أصبحنـا مـع الشريف حسين دون تردد لأننا ضد المستعمـر ، وعندمـا أراد المستعمر أن يدرجنا في مشروع التجزئة بإعطائنا دويلة مسخاً في جبل عامل ، وأرسل لنا لجنة كينغ كراين لتستفتينـا ـ أفتينا قيـادة وقـاعـدة ، علمـاء وزعمـاء وجمهـوراً واسعـاً ، أفتينـا

بالوحدة . . وعندما اشتدت الوطأة علينا ، عقدنا مؤتمر الحجير وطيرنا مذكرتنا من هناك الى فيصل في دمشق والى العالم والتاريخ ، على يد العلماء قائلين : ان جبل عامل جزء من سوريا بحدودها الطبيعية .

قفزاً على المراحل والعقود والسنوات والأيام والأحداث والتواريخ والمناسبات . . من منا لا يذكر فرحنا بعبد الناصر . . . والجزائر . . . ووو؟؟

ورحلاتنا أطفالاً على ضيق ذات اليد الى دمشق للمشاركة في أعراس الوحدة والدبكة على ضفاف بردى والعيون معلقة على شرفة قصر الضيافة و« حموي يا مشمش »! من منا ، نحن جيل أطفال الوحدة وفتيانها من لا يقول لزوجته وأطفاله لو مر ألف مرة على طريق دمشق بيروت هذه ميسلون ويوسف العظمة؟ ويمتد حبل الذكريات . . . سعيد العاص ومربود وابراهيم هنانو والجزار ووو . . . الى آخر الثورة العربية الى أدهم وصادق وسليمان النابلسي وسليمان الحلبي وسليمان خاطر وأبو علي اياد وأبو جهاد والأخضر العربي وكمال ناصر الخ . . والله وبالله وتالله لم يكن فرحنا بعبد الناصر فرحاً بالاشتراكية بل كان فرحاً بالوحدة وحسب . . لم تكن علاقتنا بالوحدة ولن تكون علاقة مشروطة ، لا شرط لنا على الوحدة ، الوحدة شرط . . شرط الدين وشرط العروبة وشرط العدالة وشرط

الحرية وشرط الديموقراطية ومعادل التوحيد وجزء من العقيدة . . . عندما استيقظنا على التجزئة واستفاق تكويننا الوحدوي كنا نعيش ترف الكيان النسبي ، وكان حسابنا المادي الرقمي يقول بأن الوحدة تعني خسارة بعض مظاهر الرفاه ووعود الرفاه ونرضى . . . لأن المعنى هو المبنى وهو اليقين المشع في عقولنا وقلوبنا هو الأولى والأجدى . . .

حتى في المعطى المادي النهائي هو الأجدى ، الوحدة غنى ، غنى الروح والجسد معاً ، وغنى الروح أولاً وبالذات ، وغنى الروح شرط ذاتي وموضوعي لغنى الجسد ، بينما غنى الجسد ليس كذلك ، ليس شرطاً وانما هو نتيجة ، وليس ثابتاً دون الروح وغناها . ولسنا في هذا بدعاً أو استثناءً عربياً او إسلامياً ، انما نحن مصداق ليس الا . . ولكن كوننا على كتف فلسطين على شدق التوراة بين مخالب التلمود يجعلنا نكرر أغانينا ونجودها . . من هنا كنا وما زلنا نفرح عندما نسرح في شوارع دمشق مترعين بشعور عميق بالالفة والتوحد . . . ونعود لأهلنا نحكي عن حشمة صبايا دمشق وعن لطف أهلها وعن مطاعم الشام وعن الغوطة وقاسيون وعن مساجد الشام وعن نصارى الشام الذين يفيضون أخلاقاً وحشمة ومشرقية وعروبة . . . من هنا بقي جول جمال وعدنان المالكي ويوسف العظمة وصالح العلي وعز الدين القسام ، غابات من النخيل والفستق الحلبي

تضرب في عظامنا ، لا تميل الى صفرة خريفية حتى تأذن بخضرة غامقة مترعة بالوعود والعهود . .

من دمشق كنا ندلف الى بغداد ، دمشق حبل سرتنا الى العلم والأدب . . من السيدة زينب وحجر بن عدي الى النجف وكربلاء الى يعسوب الدين والسبط الشهيد والكاظم والجواد والعسكري والهادي ونعود مفعمين علماً وأدباً ولغة عربية وقراراً بالجهاد ضد الفرنسيين واليهود . . . ولهجة عراقية ومصطلحات يومية من الاستكانة ، لكوب الشاي ذي الخصر اللطيف والفم المذهب الى (النومي بصرة) الحامض العماني . . . الى المائدة وأصناف الطعام من المسمّى الى القيمة الى الفسانجون . . . الى المراثي التي تصل بنا الى آخر الحزن فنفرح ومن فرحنا نقاتل الأعداء . .

عندما نفقد أباً عزيزاً نصغي الى سكينة بنت الحسين :

هضيمة يا بويا والله هضيمة
أنا صير من زغري يتيمة
أتاري الابو يا ناس خيمة
يفيي على بناته وحريمه

وعندما تضيق بنا السبل والأوطان والسجون والأفكار والضلوع والمشاعر . . . عندما نشتاق الى النجف وحواريها والكوفة ونخيلها وبغداد ودجلتها وأبي نواس والكميت ودعبل

الخزاعي والحلاج والكرخي وأبي حيان التوحيدي والشريف الرضي والسياب ، الى النبطية وصور والسيد عبد الحسين شرف الدين والسيد علي محمود الأمين والشيخ محسن شرارة وعبد الحسين العبدالله ومعروف سعد والشيخ راغب ومحمد سعد نصرخ مع مظفر النواب :

يكضن ورد يا ديرتي لحسنك وموتن عالتبن
شوقي الك شوق القطا التايه وموعات الدهن
همِّينه أذوق مِّيتك واركض بزخات المزن
دونك يحز بلوزتي الخنجر . . . عيب اون
واذا ما اشتقنا الى الحبيب قلنا مع مظفر :
من ظني كظلك بالحلم عنبر فحت
ردت اجيسك جست روحي وفرفحت

وانا يفتخر ثلاثة من أولادي الخمسة على اخوتهم بأنهم عاشوا في العراق بعضاً من عمرهم . . . وتفتخر إحدى ابنتي على الجميع بأنها ولدت في الكوفة . . . في حي كندة ، في حي الكندي والمتنبي على مقربة من الشهيد ميثم التمار الذي صلب على النخلة ، ومسجد الكوفة حيث جرح ابن مرجان علياً (ع) ، وقصر الإمارة البائد كغيره من القصور ، وهاني بن عروة ومسلم بن عقيل سفير

الحسين . . على مقربة من شط الفرات والكناسة وبيت علي بن أبي طالب (ع) الذي ما زال قائماً . . في الستينات كنا نتمشى على الرمل ، نطالع شجر العاقول ونبات الحنظل ونقرأ التاريخ في رمل الكوفة . .

ذات أصيل رأينا أحد أمراء البيان العربي المرحوم الشيخ أمين الخولي مرتبكاً قرب منزل الإمام علي (ع) قلنا ما بك أيها الاستاذ؟ قال: الولية حتقتل نفسها . . وجدناها . . . الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ تمرغ رأسها وجبينها في تراب جدران بيت فاطمة الزهراء (ع) وتبكي حتى النشيج . . . تبكي من الفرات الى النيل . . . من الجواهري الى شوقي .

« أنا ابن كوفتك الحمراء لي طنب بهاوان طاح من أركانه عمد»

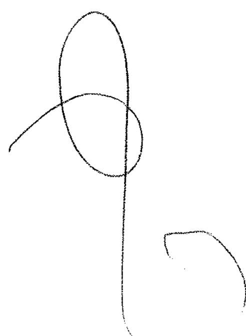
سوريا بحدودها الطبيعية . . . هي حدود العروبة والاسلام والانسانية والحضارة . . . هي حدود العداء للغرب الى أن يكف عن عدائه .

شآم أهلوك أحبابي وموعدنا
أواخر الصيف آن الكرم يعتصر»

هي حدود العقل والقلب والوجدان والضمير ، الوعي والحلم العربي الطويل طول تاريخنا العريض عرض آمالنا العميق عمق آلامنا . .

١٩٩١/٣/٢٥

الفهرس



الطباعة: دار بلال للطباعة والنشر

